الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة

كما يعرضها ويحللها

ماك كول

*

تعريب وتعليق

الأستاذ محمد الحمداوي



الروايات التاريخية
عن تأسيس
سجلماسة وغانة
كما يعرضها ويحللها
ماك كول

تعريب وتعليق
الأستاذ محمد الحمداوي



32 — 34 شارع فكتور هيكو
ص. ب. 4038 — الدار البيضاء
الهاتف : 653.46 — 623.75

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

كتب هذا البحث التاريخي الاستاذ دانييل ماك كول استاذ الدراسات الانسانية ، والعضو المشارك في وضع الدراسات الافريقية بجامعة بوسطن ماسا تشوستس بأميركا ، وقد عرض فيه اقدم الروايات التاريخية واحدثها عن تأسيس سجلماسة وغانة وناقشها، وقد نشر النص الانجليزي لهذا البحث ضمن البحوث التاريخية التي انجزتها (الجمعية التاريخية لغانة) سنة 1961 . ولما أتيح لي الاطلاع عليه احسست بميل قوي الى نقله الى اللغة العربية رغبة مني في ان اضع امام القاريء المغربي نموذجا من نماذج الدراسات التاريخية القائمة على الاستقراء والمقارنة والاستنتاج نصف ميدانه جزء من اجزاء هذه البلاد التي تنتظر من ابنائها الدارسين ان يجلو تاريخها في صورة قائمة على أساس من البحث العلمي الدقيق ، وبما ان البحث يتعلق بتاريخ مدينتين افريقيتين احداهما مغربية (سجلماسة) والاخرى سودانية (غانة) ، فقد يجد فيه القاريء المغربي حافزا للاهتمام بالبحث عما كان بين المغرب وبين ما وراءه من بلاد افريقيا السوداء من علاقة قوية في الماضي انشأها أبطال الاسلام ودعاته الاولون ، وان اثارة البحث عن هذه العلاقة قد يكون

احدى الصوى الهادية الى الطريق الاقوم للوصول الى ما تسعى اليه اليوم جميع البلاد الافريقية من (وحدة) تضمن لشعوبها العـزة والكرامة والمستقبل الافضل الذي تنشده ، وسيطلع القاريء المغربي من خلال البحث كذلك على كثير من المشاكل والاسئلة التي أثارها الكاتب حول بعض قضايا التاريخ المغربي ، والاقدم منه على الاخص ، وقد تكون بعض الاجوبة التي ارتأى الكاتب أنها الحل الواقعي ، او الجواب الصحيح لما أثاره من المشاكل والاسئلة ، محـل نظر ، ومثار مناقشة ، لدى المعنيين بتاريخ هذه البلاد من المثقفين المغاربة .

****

يقول دانييال :

ان سجلماسة (1) التي اصبحت في عـداد الاطلال البالية منذ

---

(1) قال ياقوت فى معجمه عن لفظ سجلماسة انه بكسر أوله وثانيه وسكون اللام ، وسيرد اثناء البحث مناقشة الكاتب للفروض المحتملة لاشتقاق هذا اللفظ من اصول فى اللغة العربية او غيرها ، ولم يذكر ياقوت ولا البكرى ولا غيرهما ــ فيما وقفت عليه ــ ممن تعرضوا لذكر سجلماسة من اصحاب المعاجم الجغرافية اى شىء عن اصول هذا اللفظ ، وقد ذكر البحاثة المؤرخ الاستاذ عبد السلام بن سودة فى كتابه (دليل مؤرخ المغرب الاقصى) نقلا عن بنانى فى الرحلة الكبرى ان الزبيدي شارح القاموس قد الف كتابا فى تحقيق اصول هذا اللفظ ، سماه « الحاجة الماسة فى تحقيق لفظ سجلماسة » ولكن هذا الكتاب غير موجود الآن ، اما عن موقع سجلماسة فقد ذكر البكرى « انها فى اول الصحراء » وذكر ياقوت « انها فى جنوب المغرب » و « فى منقطع جبل درن » ، والمعروف الان ان سجلماسة كانت على بضع كيلومترات من مدينة الريسانى بتافيلالت ، وقد وصف البكرى عمران المدينة وما كانت تحتوى عليه فى ايامه من النخيل والاعناب الشديدة الحلاوة وانواع التمر ومهارة نسائها فى صناعة الصوف ، وما كانت تدره هذه الصناعة على اهلها من الارباح الباهظة ، قال : واهل هذه المدينة من اغنى الناس واكثرهم مالا لانها على طريق من يريد غانة التى هى معدن الذهب ولاهلها جراة على دخولها وفى مادة (تبر) من معجمه تجد الوصف الغريب للرحلات التجارية الشاقة التى كان يقوم بها السجلماسيون لغانة ، وقد ذكر ابن حوقل انه رأى صكا بدين لاحد اهل سجلماسة على غيره مبلغه اثنان واربعون الف دينار . المترجـم

القرن السادس عشر .

وغانة (1) التي صارت هي الاخرى في نفس الوضع باطول من ذلك بنحو ثلاثة قرون ، كانتا في عز أيامهما نقطتي التقاء للطريق التجاري عبر الصحراء جنوبا وشمالا . كانت الاولى تقع جنوب الاطلس ، وكانت الثانية تقع على المنعطف الغربي لنهر النيجر . وبالرغم من أن بداية تاسيس المدينتين غامضة ، فإن بعض الروايات قد دونت مع ذلك أثناء مختلف العهود العمرانية لكلتي المدينتين . غير ان تدوين هذه الروايات كان ولا شك بعد أن تقادم العهد على تأسيس المدينتين .

على ان هذه الروايات وان كانت قد دونت منذ قرون خلت ، فإنها مع ذلــــك لم تكن تاريخا بالمعنى الحقيقي للتاريخ ، وانما

---

(1) قال ياقوت فى معجمه عن كلمة غانة (انها كلمة اعجمية لا اعرف لها مشاركا فى العربية) ولعل الانسب فى اصل هذا اللفظ هو ما قالتـــه دائرة المعارف البريطانية من انه « كان اسما للحاكم الذى كان يحكمها » وذلك مـــا اثبته البكرى حين قال : (وغانة سمة لملوكهم) وكما نطلق اليوم اسم «تونس» و « الجزائر » على الجمهورية التونسية والجزائرية وعلى المدينتين اللتين هما عاصمتا هاتين الجمهوريتين ، فان اسم « غانا » كذلك كان يطلق على المملكة الغانية القديمة وعلى المدينة التى كانت عاصمة لهذه المملكة ، وقد اصبح اسم (غانة) اليوم يطلق على الجمهورية الغانية بساحل الذهب · انظر المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 174 وانظر دائرة المعـــارف البريطانية مادة Ghana وانظر ايضا المقال الذى كتبته الدكتورة كوثر عبد الرسول فى العدد الرابع من مجلة (نهضة افريقيا) · المترجـــم .

كانت روايات شفوية (1) قد مضى زمن طويل على تسجيلها ، لذلك ينبغي ان تؤخذ بنفس الطريقة التي تؤخذ بها الروايات الشفوية فى أيامنا هذه ، فالرواية في حد ذاتها وحتى احسنها وأكملها ، كما يقول جوهان هويرينكا ، « ادلة خرساء وغير مضبوطة » ، ذلك لانها ، كما يقول « انما تقدم للتاريخ بعض اسئلة تضعها عليه بعض الاحيان » ثم يزيد محذرا لنا قائلا : « وحيث لا يكون هناك سؤال واضح فليس هناك من معرفة يمكن ان تعطي الجواب » ، وحيث يكون السؤال غامضا يكون الجواب كذلك غامضا بنفس الصورة .

ان الرواية عن مبدأ تأسيس غانا تتسم بشيء من الضعف بالنسبة للرواية عن تأسيس سجلماسة ، غير انها عن تلك قد اعطيها بعض الاهتمام بشيء من الشرح والتفصيل ، على حين أنها

---

(1) لا يتحقق الوجود الفعلى للرواية الشفوية « Oral Tradition » الا اذا كان الامر يتعلق برواية احداث حديثة نسبيا لم يمت شهودها كما يظهر ذلك من كلام شارل لانجلوا وشارل سنيوبوس فى اول كتابهما « المدخل الى الدراسات التاريخية »، ومن ثم فقد لاحظ اندرى لالاند ، فى قاموسه للمصطلحات الفنية والنقدية للفلسفة ، ان التفرقة بين الرواية الشفوية والرواية الكتابية بالنسبة الى الماضى تفرقة غير ذات قيمة ، ذلك لان الرواية الشفوية — كما يقول — لا تتحقق بالنسبة الى الاحداث الماضية الا عن طريق الرواية الكتابية .

انظر فى المعنى كتاب « المدخل الى الدراسات التاريخية تأليف لانجلوا وسنيوبوس ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وانظر ايضا

« Vocabulaire technique et critique de la philosophie », par André Lalande

المترجم

عن هذه بقيت في واقع الامر مجهولة ، ان كلا من تكوين رأي حول هذه الروايات او الاغضاء عنها قد يؤديان في مثل هذه الحال ـ فيما اعتقد ـ الى سوء فهم ، ومع ذلك فساقوم بمحاولة في هذا الشأن لفحص وتوضيح الروايات عن سجلماسة في شيء من التفصيل ، ولاعادة النظر في الروايات عن غانة في شيء من الاختصار والتقريب ، ذلك لانه ـ ولتقرير النتيجة مقدما ـ يوجد بعض الاحتمال في أن الذين قاموا بتأسيس المدينتين ينتسبون الى جماعة سلالية واحدة .

تأسيس سجلماسة

ان اغلب الكتاب المعاصرين متفقون تماما على تحديد تاريخ تأسيس سجلماسة ، فكوتيي مثلا قد كتب يقول : ان سجلماسة قد أسست في تافيلالت سنة 58 — 757 كانت اعظم طريق ، واوسع مدخل لقدوم القوافل التجارية في السودان . وكي لاسير يقول هو ايضا في تأكيد : ان سجلماسة التي اسست في سنة 58 — 757 كانت عاصمة الذهب . إن جميع هذه الاقوال تعتمد على الرواية التي ذكرها البكري (1) . والواقع ان هناك عدة روايات اخرى تتعلق بالاصول

(1) عبد الله بن عبد العزيز بن ابى مصعب الاندلسى البكرى الامام الاخبارى اللغوى الاديب ، صاحب كتاب المسالك والممالك ، ومعجم ما استعجم من البلاد والمواضع ، ابوه عبد العزيز البكرى كان احد ملوك الطوائف بولبة وسلطيش من غرب الاندلس ، قال عنه ابن بشكوال فى كتاب الصلة انه كان من اهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعانى الاشعار والغريب والانساب والاخبار توفى سنة 487 .

المترجم

الاولى للمدينة ، وتظهر هذه الروايات في بعض الاحيان ـ ولو ان ذلك ليس دائما ـ في بعض المصادر المعاصرة التي تناولت الكلام عن سجلماسة ، فدائرة المعارف الاسلامية التي تمدنا عادة بتفصيل القول في الموضوعات تنص على ان سجلماسة ربما أسست في ازمنة قديمة ، وهذا أ . و . بوفيل يذهب الى أبعد من ذلك حين يقول : انه ليس من البعيد ان المدينة المغربية القديمة سجلماسة كانت في أيام القرطاجنيين اعظم مستودع لتجارة الذهب التي استمرت زمنا طويلا . لقد اتجه اغلب الكتاب الى ان يختاروا الرواية التي ظهر انها اكثر تحديدا ، وهناك رواية واحدة هي التي حددت التاريخ فعلا . ولكن مهما تكن الرواية التي يختارها كاتب بعينه بعد ان يكون قد قام بعملية الاختيار ، فانه قد طرح باقي الروايات التاريخية ، بل ان واجب البحث يقضي بان تعتبر الروايات كمجموعة ، ذلك لانه لا ينبغي لنا ان نبحث كل رواية في عزلة عن الاخريات ، بل نحاول ان نبحث عما اذا كانت توجد هناك بعض العلاقات بين هذه الروايات جميعها . ان تاسيس المدينة قد نسب الى خمسة اشخاص مختلفين ، ونجد اول ذكر لثلاثة من هؤلاء المؤسسين في كلام البكري ، وقد ذكر بعض من تأخر عن البكري من المؤلفين العرب روايات هؤلاء الاشخاص الثلاثة ، اما الاثنان الباقيان من هؤلاء المؤسسين

المذكورين فقد أفادنا بالخبر عنهما ليو الافريقي (1) .

ولا نجد أي ذكر لهما عند غيره فيما اعلم ، وقد زار ليو المدينة مرتين وامضى هناك بعض الشهور ، وهناك كثير من الرحالة قد اخترقوا المدينة مثل ابن بطوطة (2) ولكنهم لم يسجلوا أي شيء عن روايات تأسيسها .

والبكري نفسه لم يزر المدينة وانما كان في وضع مكنه من ان يكتسب عنها اخبارا من أولئك الذين رجعوا منها إلى اسبانيا ، ذلك لان سجلماسة وقرطبة كانتا متحالفتين كما ان كلا منهما قد قاوم

---

(1) الرحالة المغربى ، الحسن بن محمد الوزان الاندلسى الفاسى الذى اشتهر لدى الاوروبيين بـــ Leo Africanus ولد بغرناطة سنة 901 هجرية 1496 م ، اما وفاته فمجهولة الزمان والمكان ، تربى ونشأ ودرس العلم بفاس حيث هاجرت عائلته فى جملة من هاجر من المسلمين المطرودين من الاندلس بعد سقوط غرناطة سنة 897 هجرية 1492 م ، جال كثيرا فى بلاد افريقيا وآسيا ، وعندما كان راجعا من تونس الى المغرب سنة 926 هـ أسره بعض القراصنة الايطاليين وارسلوه الى البابا ليو العاشر الذى اتخذه احد خواصه لما وجد فيه من سعة افق فى مختلف العلوم والمعارف الاسلامية التى كان هذا الملك شغوفا بنشرها فى مملكته ، وهو الذى سماه باسم (يوحنا الاسد) أو (ليو) ، وهناك الف كتابه (وصف افريقيا) . انظر (حياة الوزان الفاسى وآثاره) تأليف محمد المهدى الحجوى ، وانظر ايضا دائرة المعارف الاسلامية والبريطانية ، وانظر المقالات المتتابعة التى كتبها المرحوم سعيد حجى عن حياة هذا الرحالة المغربى من السنة الثالثة من (مجلة المغرب) . المترجـــم

(2) الرحالة المغربى أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى المعروف بابن بطوطة صاحب الرحلة المسماة بـــ (تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار) ، وقد طاف ابن بطوطة آفاق الارض شرقا وغربا وسجل كل ما وقعت عليه عيناه من احوال الخلق وغرائب الاحداث ، توفى سنة 777 او 79 هـ. وقد اخترق ابن بطوطة سجلماسة فى طريقه الى السودان ذاهبا وآيبا ، فى أوائل ايام السلطان ابى عنان المرينى بين سنة 752 — 753 هـ. ولم يذكر ابن بطوطة اى شىء عن بداية تأسيس المدينة وانما ذكر انها كانت فى ايامه (من احسن المدن) . وقد عد ابو القاســـم الزيانـــى فى (الترجمة الكبرى) سجلماســة فى جملة المدن التى اسسها البربر قبل الاسلام حيث قال « واسس بنو مدرار من مكناسة (سجلماسة) قبل الاسلام » .
المترجـــم

الفاطميين (1)

1 ـ الرواية التاريخية عن أبي القاسم

ان اقدم نص موجود لهذه الرواية هو ذلك النص الذي كتبه البكري في قرطبة عندما كان محافظا لسجلات الامويين في القرن الحادي عشر ، ولقد ذكر البكري اكثر من رواية عن تأسيس المدينة ، ولكن هذه هي المختارة عنده ، وهي الرواية المرجحة عند المتأخرين من الكتاب العرب والاوروبيين في مؤلف (2) البكري « ومدينة سجلماسة بنيت سنة اربعين ومائة 140 (58 — 757) وبعمارتها خلت مدينة ترغة (3)

(1) كانت اول مقاومة من سجلماسة للفاطميين أيام اليسع بن ميمون حينما زحف أبو عبد الله الشيعى من افريقيا على سجلماسة سنة 296 هـ مبتغيا اطلاق سراح عبيد الله المهدى وابنه اللذين سجنهما اليسع حين قدما سجلماسة للقيام بالدعوة الشيعية فيها ، ومن هنا استمر النزاع بين المذهب الخارجي والمذهب الشيعى فى سجلماسة فى الوقت الذى كانت فيه الحروب الطاحنة مستعيرة بين ملوك قرطبة من الامويين وبين العبيدين فى افريقيا على تولى السلطة فى المغرب

(2) يعنى بمؤلف البكرى كتابه «المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب » الذى هو جزء من كتاب (المسالك والممالك) الذى لم يوجد كاملا وانما وجد منه هذا الجزء الذى نشره البارون دوسلان فى الجزائر سنة 1857 ثم فى باريز سنة 1911 وقد رجع الكاتب فيما نقله ــ كما يقــول فى تعليقه ــ الــى الترجمة الفرنسية سنة 1913 على حين رجعت الى الاصل العربى لانقل عنه ما ترجمه هو عن الفرنسية

(3) لعل مدينة ترغة التى ذكر البكرى فى هذا النص انها خلت بعمارة سجلماسة هى الاصل لما لا يزال يعرف حتى الآن بــ (قصر ترغة) قرب قصر السوق اما الاسم « ترغة » فقد كان معروفا انه اسم لاحدى القبائل البربرية التى كانت تسكن هذه الناحية والتى ذكرها ابن حوقل على انها احدى القبائل الصنهاجية الخلص ، وهناك مدينة لا تزال اطلالها بادية على شاطىء البحر الابيض المتوسط قرب (وادى لو) تعرف حتى الآن بهذا الاسم ، (ترغة) ولا شك ان أصل ترغة الشمالية هذه هو ترغة التى كانت مع تيكساس وما بينهما من قبائل صنهاجة وغمارة بالشمال المغربى من حظ عمر بن ادريس حين اقتسم ابناء ادريس نواحى المغرب بعد موته ، راجع المسالك والممالك لابن حوقل ص 101 طبعة بيروت ، والاستقصا ج 1 ص 75 وابن خلدون ج 4 ص 14 المترجــم

وبينهما يومان وبعمارتها خلت زيز أيضا » .

وبعد ان سجل البكري هذه الرواية انتقل الى الكلام بتفصيل عن رفع اسوار المدينة وبناياتها العامة التي بنيت تحت رعاية ثاني ملوك الدولة ، ثم أخذ يصف خصب أوديتها ، ثم عاد في النهاية إلى الكلام عن الخلافة فقال : « أبو القاسم سمكوا بن واسول المكناسي ابو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بافريقيا عكرمة (1) مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية كثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة فاجتمع اليه قوم من الصفرية فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على انفسهم عيسى بن مزيد الاسود » . وهنا عاد البكري فاعطى تحديدا لتاريخ سنة بناء المدينة يخالف ما سبق أن ذكره ، وليس من شك في أن هذا التحديد الاخير كان غلطا من بعض النساخ ، اذ لم يرد أي ذكر لهذا التحديد لا عند ابن عذارى ولا عند غيره من الكتاب المتأخرين الذين وصلهم مؤلف البكري وهذا التحديد هو قوله « فشرعوا في بناء سجلماسة وذلك سنة أربع ومائة » . لقد تولى أبو قاسم الحكم بعد خلع عيسى بن مزياد ، ولكن البكري قبل ان يتناول الكلام على رواية أبي القاسم هذه ، ذكر الرواية الثانية (رواية مدرار) عن

---

(1) الذى فى تاريخ ابن خلدون نقلا عن عريب بن حميد فى تاريخه ، ان اباه هو الذى كان يتحقق من جملة العلم ، ارتحل الى المدينة فأدرك التابعين واخذ عن عكرمة مولى ابن عباس . انظر ابن خلدون ج 6 ص 130

المترجم

تأسيس المدينة ثم قصة خلع عيسى ، ونحن نقتصر هنا على ما يتعلق من القصة برواية أبي القاسم ، قال البكري : « ووليهم (عيسى) خمسة عشر عاما ثم ولوا أبا القاسم سمغو بن (1) مزلان بن نزول المكناسي فلم يزل واليا عليهم الى ان مات » .

لقد كان هذا أول بداية للدولة المعروفة بدولة (بنو مدرار) ، وهنا يقدم البكري قائمة لولاة هذه الدولة ، وبالرغم من ان أبا القاسم لم يكن رئيسا في الوقت الذي كانت تباشر فيه عملية بناء المدينة فان القصة تظهر انه كان الحاكم الفعلي ، وان فترة حكم عيسى انما كانت كفترة استجمام التي ليست لها اهمية الادوار الاساسية في تمثيل الرواية ، ان الرواية تحدثنا أن ابا القاسم كان اول من ساق اغنامه الى الناحية ، واول من تجمع حوله اتباعه الدينيون ، ثم بعد المبايعة الغامضة لعيسى نودي به على أنه هو الحاكم الشرعي . ان هذه ولا شك كانت الرواية الغريبة من الرواية الرسمية التي رويت عن رجال الحكم انفسهم ، والبكري ربما احرز على الوثيقة التي دونت زمان سيادة المدراريين على سجلماسة ، والفرق الاساسي بين هذه الرواية ورواية ابن عذارى الذى كتب تاريخه في القرن الثالث عشر هو ان هذا ينص على أن تأسيس المدينة كان قبل اختيار

---

(1) ذكر البكرى من قبل ابا القاسم على انه ابن واسول ، وهنا يذكر انه مزلان ، والذى عند ابن خلدون فى العبر ان مزلان اب لواسول وجد لابى القاسم فهو يذكر النسبة هكذا (سمكو بن واسول بن مصلان بن ابى نازول) ، اما ابن عذارى فيذكر النسبة هكذا (قيل انه ابن واسول وقيل انه ابن مزلان) .
المترجم

عيسى حاكما ، الشيء الذي يدل بوضوح تام على أن الفضل في تسيير عملية البناء كان لابي القاسم ، وابن خلدون الذي كتب تاريخه في القرن الرابع عشر ، ذكر نص هذه الرواية كذلك ، وهو يخالف المصدرين السابقين في كونه يذكر عيسى قبل أن يورد ذكر ابى القاسم في القصة ، ولكنه يشير بعد الخلع الى ان هذا الاخير كان زعيما حقيقيا لمكناسة ، ويذكر ابن خلدون أن افراد الجماعة كانوا اربعين رجلا لهم صفات الزعامة والقيادة أكثر منهم ملاك قطعان من الغنم ، وفي نص ابن خلدون ان ابا القاسم لم يكن له أي فضل في القيام بأي عمل خاص زائد على باقي افراد الدولة في تأسيس المدينة ، غير انه كان ذلك الرجل الذي قام بالدور الرئيسي في اقناع الباقين في قبول عيسى رئيسا لهم ، وفي المصدرين السابقين ان ابا القاسم كان اداة فعالة فى الايعاز ببناء المدينة ، او بتسيير عملية البناء فعلا . وهذا مفهوم ضمنا من كلام البكري ، وبصريح العبارة في كلام ابن عذارى . ان رواية ابي القاسم مرتبطة برواية عيسى ، لذلك يجب ان ننظر في الرواية الثانية قبل البدء في اي مناقشة لكلتيهما .

2 ـ رواية عيسى

وكما رأينا من قبل فان عيسى قد انتخب رئيسا ، اما قبل بناء المدينة بقليل على رواية البكري ، او على اثر بنائها على رواية ابن عذارى ، وحكم مدة خمسة عشر سنة ، وبما ان الحديث عن

عيسى كان مغمورا في الحديث عن ابى القاسم فقد اعتبر وكأنه مجرد اشارة في الحديث عن صعود ابي القاسم الى الحكم دون ان تكون له هو نفسه اهمية ذاتية ، فهل هناك اذن رواية تامة تخص عيسى ؟ من الممكن ان نقرأ البكري وان نفهمه وهو يقدم لنا فقط روايتين اثنتين ، احداهما عن عيسى والاخرى عن مدرار ، غير ان الفصل كان مضطربا بعض الشيء ، فلقد كان البكري يدور قافزا من قصة الى اخرى ، مرة الى الامام ، ومرة الى الوراء ، مستعملا في بعض الاحيان عبارة التبعية والاجتياز Transitional phrases كقوله : « تبعا لبعض المؤرخين الآخرين » ، والذي يظهر ان البكري عند ما كان يفحص مصادره كان البعض منها عنده غامضا او غير تام ، او انه لم يتأن لاستعاب المصدر كله ، او انه كان قد عزم على الرجوع الى هذه الرواية او تلك ولكنه في النهاية نسي ذلك ، والجزء الاول من القصة المذكورة اعلاه هو قوله : « . . فاجتمع اليه (ابو القاسم) قوم من الصفرية فلما بلغوا اربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى ابن مزيد الاسود وولوه امرهم ، فشرعوا في بناء سجلماسة ، وذلك سنة اربع ومائة » . وعند هذا الحد رجع البكري الى واحد او أكثر من المصادر المختلفة ليتكلم عن مدرار . ثم لما عاد الى الكلام عن عيسى تكلم عنه فقط كصعوبة اعترضت سبيل وصول ابي القاسم الى الحكم ثم زالت ، فقال : « فاول من وليها عيسى بن مزيد ثم انكر اصحابه الصفرية عليه اشياء ، فقال ابو الخطاب يوما لا صحابه في مجلس عيسى : السودان كلهم سراق

حتى هذا . واشار الى عيسى فاخذوه وشدوه وثاقا الى شجـرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض ، فسمي ذلك الجبل جبل عيسى الى اليوم ، ووليهم خمسة عشر عاما » .

وابن عذارى كان كلامه كذلك غامضا حـول السبب الذي من اجله خلع عيسى فقد قال في جملة مختصرة : « ثم انكروا عليـه اشياء » . دون ان يعين ماذا كانت التصرفات المنكرة . وابن خلدون كذلك لم يفصل القول في هذا الشان تفصيلا عندما قال : « ثم سخطوا على امـيرهم عيسى ونقموا عليه كثيرا من أحواله » . قال ذلك دون ان يحدثنا عما كان يشتمل عليه هذا السلوك المنتقد ، هناك اذن كثير من الاسئلة يمكن ان نضعها حول هـذه الرواية . فماذا كانت هوية عيسى هذا ؟ وما هي الروابط التي كانت تربطه بمكناسة ؟ لنأخذ اولا لقبه (الاسود) الذي يعني في اللغة الانجليزية « The black » عيسى اذن لم يكن مكناسيا ولكنـه كان زنجيا ، فما هي الصفات التي جعلت مكناسة تنتخبه كرئيس اول لها ؟ ان الروايات التاريخية لم تحدثنا بأي شيء عن الاسباب التي دعت الى انتخابه رئيسا ، ولا عن الاسباب التي دعت الى خلعه بعد هذا الانتخاب ، قد يكون من المعقول ان الرجل كانت له صفاته الدينية التي دعت الى زعامته حينما كانت الصفرية تشكل اول الامر جماعتها الخارجية ، وربما كان من الممكن بالنسبة اليه انه قد وهب ميزته الخاصة في هذه الخلة ، ان دائرة المعارف الاسلامية تحدثنـا عن الخوارج الذين تعد الصفريـة فرعـا منهم أنهم : « اعلنوا ان كل مومن منزه عن صفات النقص ،

كامل الدين والخلق في امكانه ان يرقى باختيار الجماعة الى مرتبة الامامة ولـو كان عبدا اسود » وقد حدثنا ابن خلدون : « ان عيسى كان من رؤوس الخوارج » فربما كانت قيمته الخارجية هذه هي التي رفعته الى ذلك المقام من الشرف والسلطـة ، وربما كان هناك نزاع على السلطة بين الرؤساء المكناسيين جعلهم يتراضون على ان يكون رجل الدولة ليس واحدا منهم . فهل يحتاج الباحث ان يذهب الى ابعد من هـذا ليصل الى الحقيقة في شـأن عيسى ؟ اذا كان الجواب بنعم ، فليس ذلك في ان نحصر أنفسنا داخل النصوص التاريخية ، وانما يكون في أن نتامـل الاسئلة التي يطرحها علينا التركيب الاجتماعي للرقعة السجلماسية في الازمنة الاخيرة . ذلك انه يوجد من بين سكان المغرب ، السكان السود الذين يعرفـون حتى اليوم باسم الحراطين ، وهكذا يكون من المهم أن نسـأل : من اين اتى هذا الرجل الاسود ، عيسى ؟ فهل كان سوداني الاصل ؟ او اوتي به من افريقيا على طريق الجزيرة العربية أو مصر ؟ او هو قد ولد في المغرب ؟ وبتحديد اكثر ، هل يمكن ان ينتسب عيسى لوادي زيز ؟ ان كل هذه الاسئلة ذات اهمية كبرى ، ولكـن مع الاسف ان ليست عندنا أية وسيلة للاجابة عنها ، وحتى امكانية عضوية عيسى في هذه الجماعة المحلية السوداء يتوقف على سؤال آخر هو : ماهو اصل الحراطين ؟ يعتبر بعض الكتاب ، ان الحراطين مولدون منحدرون من العبيد السودانيين الذين جلبهم البربر ، واذا كان ذلك حقـا ، فربما كانوا غير موجودين في القرن الثـامن ،

او كانوا موجودين ولكن عددهم كان قليلا ، وهناك آخرون يعتبرونهم من سكان الصحراء السود الاقدمين ، وهناك بعض كتاب آخرين قد أحجموا عن ان يجزموا باي رأي في الموضوع ، فكابوت ري Capot Rey يميل تجاه الرأي الذي يعتبرهم منحدرين من خليط من الاجناس المختلفة ، وهنري تيراس Henri Terrasse يرى انهم جنس سلاسي قائم بذاته على حين ان كوتيي Gautier يرى السؤال لا يزال حتى الان مفتوحا ، ومهما يكن من الامر فان كابوت بريك Cabot Briggs في اكمل واحدث دراسته لسكان الصحراء يقول ان التسمية السلالية (1) الغامضة للحراطين هي اقرب ان تكون الى تيدا Tida من الجزء الشرقي من الصحراء . وعلى هذا الاساس الذي ذكره بريك في مؤلفه الذي هو اشمل دراسة لهذه المسالة ، فانه يمكننا ان نقول ان هذه الجماعة ليست من اعقاب العبيد الذين اتى بهم البرابرة ، بل انها كانت موجودة في ذلك العهد ، وعلى هذا يمكن ان ننسب عيسى الى الجماعة التي تعرف الآن باسم الحراطين ، بالرغم من أن هذا الاسم لم يطلق عليها الا

(1) الذى عند الناصرى (الاستقصا ج 4 ص 27 طبعة مصر) ان هذه التسمية ليست سلالية وانما هى تسمية عرفية حيث اصطلح المغاربة على اطلاق لفظ (الحرطانى) على من كان عبدا ثم اعتق ، وعنده ان اصل كلمة (الحرطانى) الحر الثانى ، كأن الحر الاصلى حر أول وهذا العتيق حر ثان ، ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل (الحرطانى) على ضرب من التخفيف . وقد ورد فى كلام صاحب (الجيش العرمرم) ص 69 — 83 — 84 طبعة فاس ، على انشاء الجيش الاسود وترتيب طبقاته فى العهد الاسماعيلى ما يفيد ترجيح ما قاله الناصرى عن اصل هذه التسمية .

المترجم

حديثا . واذا كان ينتسب الى هذه الجماعة ولم يكن شخصا منقطع النسب ، فانه لا ينبغي ان ينظر الى الرواية التاريخية عنه على انه شخص اسود نال زعامة المكناسيين وكفى ، ولكن بعمق اكثر ، ينبغي ان ينظر اليها في حدود علاقة الاهالي السود الذين كان ينتسب اليهم بالبرابرة المتحكمين ، فاما البرابرة قد فرضوا انفسهم في وقت من الاوقات على الحراطين ، فذلك شيء لاشك فيه ، ولكن متى كان ذلك ؟ فهل بعد ظهور عيسى او قبله ؟ ليس لدينا من المستندات التاريخية ما يشير الى هذا الحادث . لقد كان هناك بعض القبائل السود في العهد الابليني « In Pliny's Time » (1) يسكنون الحدود الجنوبية الموريطانية التي احتلها الرومان ، وقد أكد ذلك سترابو وبطليموس ، وقد اعطى لهذه القبائل اسم البرورسيون The Perorsi ، كذلك كانت توجد هناك قبيلة اطلق عليها بعض الكتاب الاقدمين اسم : « The melano Getulians » ومعناه

---

(1) بلينى اوبلينوس فى التعبير اللاتينى ، قائد وحاكم وعالم طبيعى رومانى عاش فى القرن الاول من ميلاد المسيح تولى اكثر من منصب مدنى وعسكرى فى عهد القائد الرومانى فيسباسيان Vespasian وقاد الاسطول الرومانى غربى البحر الابيض المتوسط ، قضى مدة طويلة من عمره منكبا على المطالعة وتحصيل العلم ، اشتهر بكتابه « التاريخ الطبيعى » الذى الفه فى 37 مجلدا ، توفى فى ايطاليا مختنقا بالغازات عند انفجار بركان فيسيفيوس Vesevious فى ستابيا Stabiae سنة 79 ميلادية .

المترجم

الجيتوليان السود ، والجيتوليان (1) أنفسهم كانوا برابرة فهل كان هؤلاء الجيتوليان السود تابعين للبرابرة في ايام الرومان .

ان ذلك ليس ببعيد ، ولكننا لا نجد أي ذكر صريح لذلك في النصوص التاريخية ، لقد كان من المرجح ان جماعة البيرورسيين « Perorsi » او الفاروسيين « Pharossi » او غيرهم من سكان الصحراء السود كانوا بربريين لسانا أو على الاقل مزدوجي اللغة ، وقد كنا نستطيع ان نجد في هذا دليلا لا بأس به على اعتبار أن الجيتوليان السود كانوا مستقلين عن الجيتوليان البرابرة ، لو اننا لم نقف على نص آخر لبلينوس يخالف تمام المخالفة نصه الذي ذكر من قبل فهو في هذا النص الآخر يقول : (ان جيتوليا كلها تمتد الى نهر النيجر وتفصل ما بين الحبشة وافريقيا) ولا يمكن ان يفهم ان جيتوليا تمتد الى نهر النيجر الا اذا كان الجيتوليان السود داخلين في العبارة ، ان هناك فجوة من القرون بين هؤلاء المؤلفين الكلاسيكيين وبين الروايات العربية الاولى ، وليس عندنا اي علم عن الفترة التي كان فيها ركاب الجمال يبسطون نفوذهم

---

(1) ذكر فليكس كافيوت فى قاموسه اللاتينى ان جيتوليا Ghetuliae ناحية فى غرب شمال افريقيا ، وقد ذكر الاستاذ عثمان الكعاك (البربر ، ص 67) ، ان الجيتولين هى (جدالة) ، وانها القبيلة البربرية التى كانت تغمر قسطنطينة فى عهد الامبراطورية البربرية الوسطى التى كان على راسها العاهل البربرى سيفاكس فى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد ذكر البكرى (المغرب فى وصف افريقيا والمغرب ص 172) . ان بنى جدالة كانوا أقرب القبائل البربرية الى بلاد السودان على ضفاف النيل (النيجر) ، ويذكر ابن خلدون (ج 6 ص 152 — 181) فى كلامه على انساب البربر : ان (كدالة) احدى القبائل الصنهاجية الكبرى التى كانت تحتل الصحراء من حدود الحبشة الى بلاد السودان .

المترجم

على الصحراء ، ويعتقد أن ذلـــك ابتـدأ نحو القرن الرابع ، وربما يكون تغلب البرابرة الرحل على سكان وادي زيز السود ، احدى الواحات الكبرى التي تعرضت لهجماتهم ، قد دام ما يقرب من أربعة قرون ، واذا فرضنا أن هذا التغلب لم يستمر على هؤلاء السكان مدة أربعة قرون ، فانه يرد علينا السؤال التالي : ما الذي مكنهم من المقاومة ؟ وليس هناك من جواب عن هـذا السؤال ، سوى انهم كانـــوا ذوي حكومـة منظمة قوية بتجارة الذهب . والنتيجة التي يجب التسليم بها هي اننا لا نعلم اي شيء عن مركز السكان السود في ايام عيسى ، ولكننا ، ولتفسير هـذه الروايات التاريخيـة لا نجد أي مفر من أن نفترض انهم كانوا مستقلين ، فلو ان جماعة صغيرة من الرعاة نزلوا فجأة في مقاطعة مستقلة من سجلماسة ، فان هؤلاء الرعاة لا محالـة ، اما ان يعترفوا بسلطـة الزعيم المحلي ، واما ان يكونوا قـد استعـدوا من قبل للتغلب عليه ، وهكذا نرى ان تفسير قبول المكناسيين لزعامة رجل أسود بمجرد نزولهم كان بكل بساطة ان هؤلاء النازلين كانوا قـــد اضطروا الى الخضوع الى سلطته اولا ، وحتى اذا ما اصبحت لهم القدرة الكافية استطاعوا ان يجدوا الحجة لخلعه .

والآن فلنتأمل دين هذا الزعيم الاسود ، انه بالرغم عما يستفاد من الرواية كما يرويها الكتاب المسلمون من انه كان صفريا ، وربما كان رجلا مثاليا في هذا المذهب ، فانه ليس من البعيد انه لم يكن

مسلما بالمرة . ذلك ان اسمه (عيسى) هو الاسم العربي لـ Jésus وان هذا الاسم واسم موسى وغيرهما من الاسماء الدينية لما قبل الاسلام تعتبر اسماء لانبياء الله ، والمسلمون يستعملون هذه الاسماء كاطلاقات مناسبة لمن يتمسك بدينه ، ومع ذلك ففي الجهات حيث كانت المسيحية قوية او تقوت من جديد ، فان الاسم عيسى قلما يطلق على اتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ففي مصر مثلا نجد اليوم هذا الاسم اكثر اطلاقا على القبطي او الاغريقي منه على المسلم . وفي القرن الثامن كانت المسيحية لاتزال جد منتشرة في شمال افريقيا (1) الى حد ان الانسان يستغرب ان يكون عيسى هذا

---

(1) فى جملة الاقوال التى نقلها الدكتور حسين مؤنس (فتح العرب للمغرب ص 281) للتدليل على اضمحلال المسيحية فى المغرب ابان الفتح الاسلامي قول بيكى : (ويبدو أن البرابرة لم تكن لهم اديان ثابتة قبل الاسلام ، وكانوا وثنيين او يهودا ، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية فى القرون الاولى ثم نسوها حين اعادوا استقلالهم) . فاذا اضفنا الى ذلك ما ذكره ابن خلدون (العبر ج 4 ص 186) عن دين برابرة الجنوب حين وصول جيوش عقبة من انهم كانوا : (يومئذ على دين المجوسية ولم يدينوا بالنصرانية) ، وما نقله اكثر من مؤرخ من المؤرخين المسلمين من ان يليان الغمارى وقد كان نصرانيا قدم نصيحته الى عقبة ان لا يذهب الى الاندلس ويترك كفار البرابرة ومجوسهم خلفه — فاننا لا نجد اى مستند صحيح لدعوى الكاتب أن المسيحية كانت لاتزال منتشرة فى افريقيا الشمالية اثناء القرن الثامن الى حد استغرابه ان يكون عيسى ابن مزيان مسلما لا نصرانيا ، ولسنا ندرى كيف يعقل أن المسيحية كانت لاتزال منتشرة فى افريقيا الشمالية حتى القرن الثامن ، وهو القرن الذى لم تكد العشر سنين الاولى منه تطل على نهايتها حتى اصبح الاسلام — بفضل ما قام بالدعوة له الكثير من فقهاء التابعين وعلمائهم — غير مقتصر الانتشار على المغرب وحده بل عبر البحر منتقلا الى الاندلس على يد البرابرة المسلمين انفسهم . اما استدلال الكاتب بالاسم (عيسى) على ترجيح نصرانية عيسى فليس فيه شىء من الغناء العلمى ، والا فابن نصير الذى قاد حملة الاسلام الى الاندلس فى اوائل القرن الثامن الميلادى لم يكن اسمه عمر ولا ابا بكر ، وانما كان اسمه (موسى) المترجم

غير مسيحي .

ويقول ابن خلدون ان أب عيسى اسلم على يد العرب ، والعبارة المستعملة في خصوص أب عيسى هذا هي (مولي) (1) التي يصح ان نترجمها بكلمة « Client » والتي يمكن ان تعني ذلك الذي يقبل الدخول في الدين الجديد مفضلا له عن الحرب . وتبعا للقانون الاسلامي فان خيارا كهذا يجب ان يعرض على الكفار . والخروج من دين الى دين كما يمكن ان يتخيله المرء ، يكون تقبله اشد قسوة واكثر اثرا في النفس لو لم يكن الجيش الاسلامي دام محتفظا بقوته ، وفي سنة 702 ميلادية (التي ربما كانت زمن وجود اب عيسى) كانت ناحية سجلماسة محتلة من قبل جيش موسى ابن نصير ، غير انه مما لا شك فيه ان سيطرة الجيش على هذه الناحية كانت ضعيفة ، حيث انه كان لا يزال مكلفا بالقيام بفتوحات جديدة ، وفي سنة 739 ثار برابرة شمال الاطلس ضد العرب ونصبوا عليهم ميسرة حاكما مستقلا وكان من الطبيعي ان تفصل هذه الدولة البربرية ناحية سجلماسة ، وان تعلن عن الرجوع الى الدولة القديمة ، وحيث ان أب عيسى كان مولى للعرب لا للبرابرة ، وان ثورة ميسرة وانفصال الصفرية قد شكلا رد فعل بربري ضد السيطرة العربية فمما لا شك فيه

---

(1) عبارة ابن خلدون (العبر ج 6 ص 130) هى : « وولوا عليهم عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب ورؤوس الخوارج » . فالذى يظهر من هذه العبارة ان ابن خلدون قصد ان عيسى هو الذى من موالى العرب لا اباه . المترجم

ان عيسى شعر بأن البرابرة المنتجعين سيكونون حلفاء نافعين فيما لو اراد جيش آخر قوي مثل جيش موسى بن نصير الرجوع الى هذه الناحية . فاذا كان عيسى هو الحاكم الاهلي الذي بنى ، او على الارجح ، اعاد بناء سجلماسة بعد هزيمة أهله من قبـــل الجيوش الاسلامية ، فقد تكون رغبته انه اراد ان تكون لقومه مركزا اقوى مما كان لهم من قبل ، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى من أجله بناء المدينة الى خراب مدن أخرى ، وربما كان بأمر عيسى قد انتقل كثير من سكان الجهات الاخرى الى هذه الناحية ، وربما قد نقلوا معهم كذلك مواد البناء ليجعلوا العاصمة قلعة محصنة لا يقهرها عدو ، ومما لاشك فيـــه أن هذه الثورة الدينية العنصريـة التي وقعت هنا وقـع مثلها كذلك في جهات اخرى ، والمكناسيون ولا شك كانوا عازمين على ان يسيطرون على نواحي اخرى بمجرد ما يشعرون انهم قـد اصبحت لهم القدرة الكافية على ذلـك ، ومن ثم فإن تسامحا دينيا بالنسبة اليهم كان جـد مفيد ، فإذا كان عيسى مسيحيا فإن العذر في تنحيته عن الحكم ربما كان اقرب الى القبول منه لو كان صفريا ملحدا ، ومما هو قابل للفهم كذلك ان المسلمين لم يكلفوا انفسهم اي مجهود للاحتفاظ بذكرى خضوعهم لحـــاكم مسيحي . ومهما تكن الصبغة الدينيـة لعيسى قد حصل ان نهاية امره قد تمت بمساعدة خارجية ، ذلك اننا نلاحظ ان ابا القاسم واتباعه السجلماسيين ليسوا هم الذين اسرعوا بالثورة ضد عيسى ، ولكن ابا الخطـاب ، زعيم البرابرة الخوارج الذي كان قـد وصل

الى سجلماسة بعـد ان نال السيطرة العسكرية التامة على الجـــزء الشرقي من المغرب ، هو الذي كان قـد اشار باصبعـه الى عيسى وصنع التهمة ضده (1)

3) الرواية التاريخية عن مدرار

نرى في كلتى الروايتين المذكورتين فيما قبل ان التاريخ قـد حدد ، أما هذه الرواية فلم يذكر لها اي تاريخ ، كما انها محاطة

---

(1) جاء فى نص البكرى عن نهاية عيسى ما يلى « المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ص 149 » : « فقال أبو الخطاب يوما لاصحابه فى مجلس عيسى : السودان كلهم سراق حتى هذا ، واشار الى عيسى » · وواضح من كلام الكاتب انه حمل ابا الخطاب هذا على ابى الخطاب الاعلى بن السمح المعافرى الاباضى ، اذ هو الذى نال السيطرة التامة على القيروان وطرابلس ونواحيهما فى المغرب الشرقى بعد ان تغلب على عبد الملك بن أبى الجعد ومن معه من البرابرة سنة 141 هـ · ولكن أبا الخطاب المعافرى هذا قتل سنة 144 هـ على يد ابن الاشعث ، فكيف يصح اذن ان يكون البكرى قد عنى بأبى الخطاب الذى صنع التهمة ضد عيسى ابا الخطاب المعافرى وهو الذى كانت وفاته قبل وقوع حادثة عيسى بنحو احدى عشرة سنة ؟ اذ ان نهاية عيسى وولاية ابى القاسم بعده كانت سنة 155 هـ كما نص على ذلك ابن خلدون وابن عذارى · وكلاهما قد ذكر قصة خلع عيسى وشد وثاقه الى شجرة فى رأس الجبل حتى مات ، ولكنهما نسبا كل ذلك الى جملة اصحابه ، ولم يرد أى ذكر لابى الخطاب فى مؤلفيهما · فاذا كان ابو القاسم هو اول زعيم اجتمع عليه الصفرية كما ورد ذلك نصا فى كلام ابن عذارى ، وكان اول من حمل قومه على طاعة عيسى ومبايعته كما ورد ذلك نصا فى كلام ابن خلدون ، فان الاقرب الى منطق الحادثة هو ان يكون أبو القاسم هو الذى اشار على الجماعة بأن يفعلوا بعيسى ما فعلوا به · وحينئذ يبقى ورود اسم ابى الخطاب فى رواية البكرى أمرا مجهول السبب ·

المترجـم

راجع ابن خلدون ج· 4 · ص 410
طبعة بيروت ·

ابن عـــذارى ج· 1· ص 82 — 83

الاستقصا · ج· 1 ص 55—56—57

بكثير من الشكوك ، ومناقضة للروايتين السابقتين ، ومن ثم فقد كانت دائما محل تشويش للمعلقين ، وهاهي ذي الرواية كما يحدثنا عنها البكري ، قال : « وذكر آخرون ان مدرارا كان حدادا من ربضية الاندلس ، فخرج عند وقعة الربض فنزل منزلا بقرب سجلماسة ، وموضع سجلماسة ، اذ ذاك براح يجتمع فيه البربر وقتا ما من السنة يتسوقون القرب ، فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد ، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها وسكن البربر حوله فكان ذلك اصل عمارتها ، ثم تمدنت ، والاول اصح في عمارتها ، واما مدرار فلا شك انه كان حدادا ، لان ولداه القائمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك » . وقد تجاهل ابن عذارى وابن خلدون هذه الرواية ، فاما لانهما قد شكا في صحتها ، واما لانهما لم يعلما اي شيء عماذا تعنيه . والا فمما لاشك فيه انهما قد اطلعا على مؤلف البكري ، والبكري نفسه لم يعط للرواية كبير اهتمام ، وانما ذكرها بالمناسبة ، وانه لمن الصعب ان تتفق هذه الرواية مع الرواية عن أبي القاسم الذي ذكر انه كان جدا لمدرار ، اذ كيف يعقل أن يبنى مدرار هذا المدينة ، اذ كان جده قد بناها من قبل ؟ او كان عيسى هو الذي قد بناها في أيام جده ؟ وانه لغريب حقا ان ينسب بناء المدينة الى الثالث من رجال دولتها الاولى ، وقد وضح البكري ، سلسلة نسب هذه الدولة حين قال : « ابو القاسم سمجوا ابن واسول المكناسي ابو اليسع المذكور وجد مدرار » ، وابن عذارى وابن خلدون قد اتفقا كذلك على رتبة مدرار

فى الدولة . على أن ترتيب الحوادث التاريخية وتعيين أزمنتها يضع امامنا مشكلة كذلك ، فالبكري لم يعين لهذه الرواية اي تاريخ محدد ، ويقترح دوسلان في حاشية له اسفل الصفحة تحت هذا الكلام طريقة لتوريخ خروج مدرار من اسبانيا حين يقول : « في الثالث عشر من رمضان سنة 202 هـ (1) (نهاية مارس 818) نشبت ثورة في الارباض على الناحية الجنوبية من قرطبة ، قد وضع الحكم ثالث الخلفاء الموحدين نفسه على رأس حرسه وهجم على المتمردين ، وقام فيهم بمجزرة مرعبة ، واعطى اوامره بتهديم جميع الدور بما في ذلك المساجد ، حتى اصبحت هذه الناحية التي كانت آهلة بالسكان قاعا صفصفا ، وارغم السكان على الفرار فذهب البعض الى طليطلة ، والبعض الى اراضي البربر من افريقيا الشمالية ، وشكل آخرون كتائب من خمسة عشر ألف رجل وذهبوا الى الاسكندرية » .

ولكن اذا كان مدرار لم يصل الى المغرب حتى سنة 818 ميلادية ، ثم بعد ذلك بزمان اخذ يذهب باستمرار الى السوق على وادي زيز ، واخيرا اقام هناك في خيمة ، وعندما بنيت المدينة تطورت تدريجيا ، فان هذا يتعارض مع التواريخ الحقيقية المعينة لحوادث خاصة ، مثل بناء السور العظيم الذي رفع من الحجر والآجر

---

(1) للاطلاع على تفاصيل هذه الوقعة واختلاف روايات المؤرخين فى تحديد سنة وقوعها راجع تاريخ دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 ص 240 للاستاذ عبد الله عنان المترجم

ونسب الى سنة 199 هـ (15 - 814) ثم نقع في مشكلة انساب رجال الدولة ، حيث نجد ان هذا السور قد قام ببنائه اليسع ابو مدرار. قد يكون دوسلان محقا في ان هذه هي الثورة التي كان يعنيها البكري عندما كان يكتب ، ولكن البكري ربما اختلطت عليه او على مصادره الثورة الشهيرة بأخرى اقل منها ، اذ ان هناك عدة سلسلات من الثورات كانت قد وقعت في اسبانيا ابتداء من 740 م ، فبالاضافة الى ثورات البربر ضد السيطرة العربية كانت هناك ثورات المولدين الاسبان (الداخلون في الاسلام) ، ومن بعيد الاحتمال ان يكون مدرار مولدا اسبانيا اكثر من ان يكون واحدا من كثير من البرابرة الذين هاجروا الى اسبانيا ، والاقرب الى الاحتمال انه كان مكناسيا ، فاذا فرضنا ان الثورة الاسبانية كانت احدى الثورات المبكرة ، فاننا نستطيع بهذه الطريقة ان نحل مشكلة تناقض ترتيب السنوات غير ان المشكلة التي يثيرها امامنا تسلسل نسب الدولة تبقى معلقة ، فلنأخذ اذن بطريقة اخرى ، ذلك ان قصة مغامرات مدرار في اسبانيا لا تشكل اية صعوبة اذا ابتعدنا بها عن قصة بناء المدينة ، ونظرنا اليها فقط كمجرد تفاصيل عن احد رجال الدولة ، فمن الممكن ان يكون مدرار قد ذهب الى اسبانيا كشاب في الوقت الذي كان فيه والده يباشر بناء اسوار المدينة ، ويمكن ان يكون قد زاول هناك حرفة حداد (وان كان ذلك ربما كان غير مناسب لمقامه كوارث دولة) ، وشارك في ثورة قرطبة ، ثم رجع الى سجلماسة ليأخذ

في النهاية مكانـه في خلافة الدولة ، غير ان هذا الحل غير ممكن لانـه يوجد هناك سبب آخر يجعلنا ناخذ روايـة مدرار على انها رواية لهـا بعض معنى ، ذلك ان الدولـة التي اسسها ابو القاسم قد عرفت بدولة بني مدرار ، يعني حفدة مدرار ! فلماذا يرتبط اسم الدولة باسم العضو الثالث في سلسلة نسبها ؟ مع انه ليس فقط ذلك الذي لم يرق رتبة الشرف وعلو المنزلة الا بفضل جده وابيه ، بل انـه لم يصل الى مقام ابيه الذي اشتهر كحاكم ممتـاز ، والذي كان اول من اطلق عليه لقب (المنتصر) لانه هو الذي اخضع باقي اراضي جنوب الاطلس ، وادخل وادي درعة تحت سيطرة الدولة وبـنى القصور والحصون ، على حين ان ابنـه مـدرارا كان رجلا خاملا وعديم الفائدة ، غير قادر حتى على ضبط ابنائه المتشاجرين.

وربما كان هذا كله مبعث اضطراب لابن خلدون حمله ، وهو المولع بالتدقيق والتنظيم ، على ان يحذف رواية مدرار ، وينفرد بين أقدم المؤرخين الذين سبقوه بتسمية الدولة باسم (بنو واسول) وهي تسمية اقرب الى المنطق ، اذا اخذنا بروايـة ابي القاسم على انها رواية قطعيـة . على أن اشتراك شخصين في اسم واحـد وهو – حادث كثير الوقوع – قـد يمكننا من ان نحمل الروايـة على انها تقصد اقدم مؤسس للمدينة ، ولكن ما هي العلاقـــة حينئذ بـين مدرار الاقدم ، ومدرار حفيـد ابي القاسم ؟ ، هنـاك سبب واحد يحمل على الظن بأن هذه الرواية عن مدرار هي اقدم رواية يرجع اصلها الى ما قبل الاسلام ، وهذا السبب هو ان هناك اشياء

غريبـة عن مدرار هـذا ، فالحدادون كانوا يعتبرون في كثير من جهات البحر الابيض المتوسط ، وبعض اجزاء افريقيا ، والجزيرة العربية ، وكأنهم يملكون بعض القوى الخفية . وان تجريد الاسم ، وغموض الحداد ، ربما كانا شيئين ليسا بعيدي الصلة ، فالبكري لم يعطه اي اسم او لقب من الاسماء والالقاب الشائعة في الاستعمال الاسلامي (1) ، حقا ان ابن خلدون اضاف لقب (المنتصر) الى مدرار ، ولكن هذا اللقب اكتسبه ابوه من قبله ، كما انه اطلق على التوالي (وبدون استحقاق ، على عدة اعضاء من رجال الدولة الذين اتـوا بعد مدرار ، والمسعودي اطلق عليهم اسم (بنو المنتصر) . وربما كانت الرغبة في التحقيق ايضا هي التي حملت ابن خلدون على ان يخالف من سبقه من المؤرخين ويطلق اللقب على مدرار ، الشيء

(1) يعنى فى النص الذى يتعلق برواية بناء مدرار للمدينة ، اما عندما اخذ البكرى يتكلم بعد على تعاقب رجال الدولة على الحكم ، فقد جاءت عبارته كما يلى :

« وولى ابنه مدرار المنتصر بن اليسع ، ومدرار لقب » (المغرب ص 150) . فاذا نظرنا الى هذه العبارة فى ظاهرها وصريحها نجد ان البكرى قد اعتبر ان (المنتصر) هو الاسم ، وان (مدرار ، هو اللقب ، وحينئذ يكون قد ابتعد عن الاستعمال التاريخى لتلقيب الملوك والامراء فى عهود ما بعد الصحابـــة . اما ابن عذراى فقد جاءت عبارته صريحة فى اعتبار (مدرار) اسما لرجل دولة لم يستحق اى لقب ، وذلك حين يقول : « ثم ولى بعده ابنه مدرار بن اليسع » (المغرب ج 1 ص 217) ، ثم يعيد التصريح بتخصيص لقب (المنتصر) بالاب الذى هو اليسع حين يقول : « وهو المنتصر بن سمغون المتقدم ذكره » . ثم يأتى ابن خلدون فيخالف كلا من البكرى وابن عذارى ويأتى باسم مدرار ملقبا بالمنتصر كما جرت العادة فى الاستعمال التاريخى الاسلامى حين يقول : « وولى مدرار ، ولقبه المنتصر » (العبر ج 6 ص 131) .

المترجـــم

الذي لم يستعمل في المؤلفات التي وصلت الى ايدينا . فإذا كانت هذه الرواية تشير الى حداد سحري حكيم ، قد اسس المدينة قبل وصول مكناسة اليها ، فكيف اذن اشتبهت قصة مدرار الاقدم بقصة مدرار حفيد ابي القاسم ؟ ويظهر باديء ذي بدء ان سبب ذلك هو انه ربما كان سميا له ، ؟ ولكن ذلك ليس بكاف لتبرير اطلاق اسم « بنو مدرار » على الدولة ، ولا لتلك المسبات التي كانت الدولة تتالم منها من اجل احتراف اجدادهم الاعلين لصنعة الحدادة ، من الممكن ان تتناسب رواية مدرار مع روايتي ابي القاسم وعيسى بطريقة اخرى هي هذه ، ذلك انه اذا كان مدرار الذي اسس مدينة سجلماسة في زمن اقدم من زمن عيسى ، وكان عيسي حاكما متأصلا في الحكم هناك ، فليس من بعيد حينئذ ان مدرارا هذا كان جدا اعلى لعيسى ، وبعد عزل عيسى يمكن ان يكون ابو القاسم قد احتاج الى تعضيد قوم عيسى ، لانه لم يكن ذا مركز ثابت فيهم ، وما ثم توقف على مساعدة ابي الخطاب ، واكبر الظن انه قد زوج ابنه احدى سلائل البيت العيسوى قصد ان يكسب التعضيد التام من السكان المحليين . ذلك انه بهذه الصفة يصبح ولدها اول حاكم شرعي للدولة الجديدة في اعين السكان المحليين ، وربما لتقوية ذلك اعطى هذا الولد اسم « مدرار » الذي يستدعي الرواية القديمة ، وبهذا يمكننا ان نفسر تسمية الدولة بعد الثالث من حكامها ، كما انه في الوقت نفسه يجعل من المعقول تجنب الكنى والالقاب التي تثلم شرف الاسم القديم .

لقد كان في امكاننا ان نضع رأيا نهائيا على هذا الاساس ، لو أننا استطعنا ان نقيم هذه الافتراضات على مقياس التجربة والاختبار ، ولكننا لا نستطيع ذلك لاننا لا نعرف من كانت ام مدرار . ومن الغريب ان اول رجل من رجال الدولة ذكرت زوجتاه هو مدرار نفسه ، وربما كان ذلك لانه كان له ولدان باسم واحد ، والطريقة الوحيدة التي امكن بها تمييز كل واحد عن الآخر هي اضافـــة اسم امـه اليه ، لقد كانت احدى زوجتي مدرار هي اروى بنت رستم مؤسس مملكة تاهرت المجاورة ، التي كانت كذلك دولـة خارجية (1) ، وحليفا طابعيا لدولة سجلماسة .

والزوجـة الاخرى ذكرت فقط باسم مجـــرد دون اي اشارة

---

(1) فى موضوع انتشار المذهب الخاريجى فى المغرب يقول ابن خلدون ج 7 ص 24 طبعة بيـــروت : « لما استأثلت دولة بنى امية كثرت الخارجية فى البربر وملك ورفجومة القيروان ، وهوارة وزناتة طرابلس ، ومكناسة سجلماسة ، ابن رستم تاهرت » . وابن رستم هذا هو عبد الرحمن بن رستم الفارسى الاصل الاباضى المذهب ، دخل افريقيا فى أوائل الفتح الاسلامى ، استخلفه ابو الخطاب المعافرى الاباضى على القيروان سنة 141 ولما انهزم البرابرة الاباضيون على يد ابن الاشعث وقتل ابو الخطاب فر عبد الرحمن بن رستم الى المغرب الاوسط والتحق بالاباضية هناك فبايعوه بالخلافة ، واسس مدينة تاهرت التى اصبحت فيما بعد عاصمة الدولة الرستميـــــة الخارجية التى استمر حكمها بالجزائر 130 سنة الى ان سقطت على يد العبيديين . انظر أخبار تاهرت وأخبارالدولة الرستمية فى البكرى ، المغرب ص 66 — 67 ، وابن عذارى ج 1 ص 278 طبعة بيروت . ابن خلدون ج . 6 ص 246 — 247 طبعة بيروت . وعن حضارة الدولة الرستمية ونظام الحكم فيها ، انظر التاريخ العام للجزائر لعثمان الكعاك ص 67 ، وكتاب الجزائر لاحمد توفيق ص 20 — 21 — 22 . المترجـــم

الى اجدادها ، وقد صور دوسلان اسمها بالاحرف اللاتينية هكذا Elteki وذكر في حاشيته ان المخطوطات المختلفة قد قدمت اشكالا متنوعة لهذا الاسم باختلاف كبير هكذا :

(1) El Baki, Baghi Yefi, Thakia

وبالرغم عن هذا الاختلاف الكبير في النطق ، فان هذه الكتابات جميعها ليست سوى تصوير بالخط العربي لاسم غير مفهوم والذي يظهر من هذا كله هو ان اسما غير معروف قد حرف باغلاط النساخ المتأخرين ، وقد يدل هذا على ان الاسم الاصلي ربما كان اسما غير عربي ، فهل كان اذن اسما بربريا ؟ . ذلك ما لم أستطع ان اثبته حتى الآن ، غير ان النسخ المغربية قد اشتملت على اسماء مؤنثة اكثر شيوعا ، وحتى اذا كان اسما بربريا فمما لا شك فيه انه كان اسما غير عادي ، وقد يكون اسما لسكان اهليين ، ولكننا لا نستطيع ابدا ان نقيم الحجة على ذلك ، لاننا لا نعرف اي شيء عن لغة البرورسيين The Perorsi القدماء ، ولا عن اية لغة اخرى من لغات السود الصحراويين الذين كانوا يعيشون في المغرب الشمالي قبل البرابرة ، وهذا مع الاسف يجعلنا لا نستطيع ان نستمر في البحث اكثر ، والذي يستفاد من هذا كله هو ان الاسم اذا كان يوحي الينا بأن مدرارا قد تزوج بامرأة

---

(1) ورد اسمها عند البكرى ، ثقية ، وعند ابن عذارى بقية ، وعند ابن خلدون فى طبعة مصر : بغى . وفى طبعة الجزائر وبيروت : تقى .
المترجم

حرطانية ، فان ذلك يدل على موقف يختلف تمام الاختلاف عما هو واقع اليوم تجاه الزواج بهذا الرهط المنبوذ ، فاذا كان الرجال البرابرة في سالف الايام قد رغبـوا في الزواج من النساء الســـود المحليين ، على الاقل لاسباب سياسيـة ، فان ابن ابي القاسم يمكن ان يكون قد فعل ذلك ، وابنه مدرار يمكن ان يكون كذلك قد تزوج من رهط امـه ، زد على ذلك انه اذا كان السكان المحليون السود حينئذ عاملا سياسيا في أوائل دولة بني مدرار فإن النزاع بين بني مدرار يمكن ان يكون له مغزاه في هذا التناحر السلالي ، لقد فضل مدرار ابن بنت ابن رستم ، ولكن شعب سجلماسة تدخل فعضد ابن تقية ، وابن خلدون الذى يقدم لنا هـــذا التفصيل لم يتحدث لنا عن اي شيء أكثر من نزاع الاشخاص ، لذلك فان كل ما تقـدم يحتوي على قدر كبير من الافتراض ، وينبغي ان ينظر اليه بالقدر اللازم من الاحتراس .

4) الرواية الرومانية

لقـد نسب بناء مدينـة سجلماسـة الى ضابط جيش روماني في تاريخ غير معين ، وقد ذكر هـذه الرواية مؤلف عربي واحد لم يكن يكتب لجمهور عربي . ففي القرن السادس عشر كتب ليون الافريقي (1) الذي زار الناحية قبل اسره من قبل الايطاليين يقول :

---

(1) راجع التعليق رقم (1) ص 11 .

المترجـــم

« يذهب البعض الى ان هذه المدينة قد اسسها قائد جيش روماني كان قد قاد جنوده شمال موريطانية واحتل نوميديا متوجها نحو الغرب حيث بنى مدينـة سماها سيجيليوم مسـه «Sigillummesse» سميت بهذا الاسم لانها وقعت على تخوم ماسة « Messa » وبتحريف الكلمة اصبحت تدعى سجلماسة «Segelmesse» . وقد علقت دائرة المعارف الاسلامية على هذا فقالت : « وفي هـذه الرواية نجد اشارة صريحة للحملة العسكرية الرومانية التي قادها كل من سوتونيوس بولينوس وهو سديوس جيتا جنوب المغرب الاطلسي في سنة 41 ميلادية » . وجميع التعاليق الاخرى التي وقفت عليها تشير الى نفس الارتباط، غير أن من المحتمل ان تكون هناك عدة ارتباطات تاريخية اخرى، فبالرغم عما يثبته بليني (1) حين يقول : « إن أول مـرة حاربت فيها القـوات المسلحة الرومانيـة في موريطانيـا كانت في أيــام كلوديوس (2)، وان من المحقـق ان جنودنا قد وصلت الى حدود

---

(1) راجع التعليق رقم 1 ص 20 .

(2) هو كلوديوس بن دروسس ، احد اباطرة الرومان الذى تولى حكم الامبراطورية بعد جايوس كاليجيولا من سنة 41 الى سنة 54 ميلادية ، وكان اهم حادث وقع فى عهده هو احتلاله لبريطانيا سنة 43 ميلادية . وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية (مادة Claudius) وول ديورانت (قصة الحضارة ج 11 ص 35) ان كلوديوس هو الذى الحق موريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى موريطانيا القيصرية فى الشرق ، وموريطانيا الطنجية فى الغرب ، اما الاستاذ احمد صفر صاحب كتــاب (مدينة المغرب العربى فى التاريخ ، فقد ذكر (ج 1 ص 291 — 305 ، ان كاليجيولا هو الذى الحق موريطانيا بالامبراطورية الرومانية ، وقسمها الى ولايتين رومانيتين جديدتين بعد أن قتل الملك بطليموس ابن يوبا الثانى ، وقضى على الثورة البربرية التى قامت فى عهده بزعامة الزعيم البربرى ايدامون ، تحت قيادة القائد الرومانى سوتونيوس بولينوس المذكور فى النص الذى نقله الكاتب عن دائرة المعارف الاسلامية . المترجــم

الاطلس المغربي تتابع غزوها للاهالي المغلوبين ، وان فخر روما لم يكن فقــط بقناصلها وقوادها الحربيين الذين استطاعوا ان يخترقوا سلسلة جبال الاطلس ، ولكن فخرها كان كذلك بساداتها الذين حكموا البلاد بتتابع » . ـ فإن هذا مع ذلك لم يكن أول استخدام للجيوش الرومانية في هذه الناحية ، ولكنه كان فقط اول استخدام لها بعد ان خضعت موريطانيا وأصبحت مقاطعة رومانية .

بل ان يوبا الثاني « 1 » كان اكثر من اداة طبيعية في يد أغسطس « Augustus » وكورنليوس لوتيليوس كوسوس هو الذي سحق ثروة قبائل جدالة « Gautulians » في السنة السادسة من ميلاد المسيح.

وقد كتب مومسن « 2 » الذي تحدث عن المقاطعات بمثل ما

---

(1) هو يوبا الثانى بن الملك البربرى يوبا الاول ، ولد سنة 50 قبل الميلاد ، ولما مات ابوه منتحرا سنة 46 قبل الميلاد ، اخذه يوليوس قيصر معه الى روما وهو صبى صغير ، وهناك حظى برعاية اغسطس الذى وكل تربيته الى اخته اوكتافيا ، ولما كبر زوجه بكيليوباترا الصغيرة ابنة كيليوباترا ملكة مصر الشهيرة سنة 29 قبل الميلاد ، واورثه عرش ابيه عــلى نوميديا سنة 30 قبل الميلاد ، وبعد ان اصبحت نوميديا مقاطعة رومانية عوضه عنها مملكة موريطانيا سنة 25 قبل الميلاد وفى عهده ثارت قبائل جدالة البربرية على الحكم الرومانى ثورتين اثنتين، احداهما سنة 6 ميلاديةفى ايام حكم اغسطس وهى الثورة التى قضى عليها كورنليوس ، والثانية فى سنة 17 ميلادية فى أيام حكم تيبريوس خلف اغسطس بزعامة الزعيم البربرى تاكفاريناس ، وفى كلتى الثورتين كان يوبا الثانى يحارب مع القواد الرومانيين جنبا الى جنب ضد الوطنيين ، وقد كان يوبا الثانى عالما ومؤرخا الف اكثر من كتاب فى الفن والادب والتاريخ والنبات ، ويظن ان وفاته كانت بين سنة 19و24 ميلادية . Nelson's Ency. « Juba » ومدنية (المغرب العربى فى التاريخ) ص 286 وما بعدها و Ency. B. « Juba »

(2) Mommsen احد رجال التاريخ الكلاسيكيين الالمان فى القرن التاسع عشر ، ولد سنة 1817 وتوفى سنة 1903 ، وقد اشتهر كذلك بتضلعه فى القانون وفقه اللغات والمسكوكات ، شغل اكثر من منصب فى استاذية التاريخ القديم والفقه الرومانى ، وكتب تاريخ روما فى خمــس مجلدات ، نال جائزة نوبل فى الادب سنة 1902 . المترجم

تحدث عن روما ، يقول : (لقد دعت الحاجة الملك يوبا الثاني اكثر من مرة لان يلتمس المساعدة من الحاكم الروماني ضد الجداليين » .

ان جنودا من هذا النوع ، لم يكونوا تحت مراقبة عسكرية لفيلق منظم ، قد اعيروا لصاحب سلطة مجاور ، ليستعين بهم على استتباب الامن في مناطق نفوذه التي لم يستطع هو بمفرده ان يسيطر عليها بالقدر الذي يلزم ـ جنود من هذا النوع ، ربما كانت لهم الفرصة التامة لان يؤسسوا قاعدة عسكرية أمامية ، بل ربما كان الدافع المضاعف لان يقوم هؤلاء الجنود بما قاموا به هو ما قد ثبت لديهم من قبل من دلائل التجارة الرابحة التي من اجلها كانت للبلاد شهرتها المعروفة . وفي الوقت الذي عثر فيه على قطعتين من النقود الرومانية في الصحراء عبر طريق معبدة جنوب سجلماسة ، أصبح النشاط الروماني في هذه الناحية امرا قابلا للتصديق ، ان جميع هذه المصادر غير محددة جغرافيا بالقدر الذي تمنيناها ان تكون ، ذلك ان قبائل جدالة كانت منتشرة على مسافة كبيرة من تلك الاراضي ، كما ان العمليات العسكرية التي قام بها يوبا الثاني ربما امتدت بعض الشيء الى ابعد نقطة شرقا ، بل ان الاقرب الى التصديق ان البعثة الحربية التي قادها سوتنيوس قد اخترقت وادي زيز . وبالرغم عما تبت من ان كلا من سوتنيوس وجيتا قد نقلا فيما بعد لاحتلال بريطانيا ، فان النص المنقول عن بيلني يثبت ان مراقبة دائمة استمرت زمنا في هذه الناحية من

الاطلس الجنوبي ، وقد أخبرني طبيب في مستشفى أرفود بانه قد وجدت بالقرب من هذه الناحية بعض اطلال التي تأكد انها كانت اطلالا رومانية ، كما ان الناشرين للترجمة الفرنسية الجديدة لمؤلف ليو الافريقي قد اخبرونا بأن بعض الآثار قد وجدت في هذه الناحية ، واعتبرت وكانها اطلال رومانية ، غير ان نسبتها الى الرومان لا تزال لم تتأكد بعد .

ان ليو هو المؤلف العربي الوحيد الذي اشار الى أصل ومعنى الاسم (سجلماسة) ، وقد كانت مدينة ماسة تقع في المغرب الجنوبي على نهر يصب في المحيط الاطلسي ، وقد كانت مدينة ذات اهمية أثرية (1) .

ومن الممكن انهـا كانت في بعض الاوقات تسيطر على بعض

---

(1) ذكر الزيانى فى الترجمة الكبرى ان ماسة احدى المدن التى بناها البربر قبل الاسلام ، وذكر المالكى فى رياض النفوس (ص 26) والدباغ فى معالم الايمان (ص 48) ان عقبة وصل الى ماسة وبنى بها مسجدا . وقد صورها ابن حوقل فى خريطته التى وضعها للمغرب تحت اسم (رباط ماسة) ، وقال (ص 68) : انها تقع بين النهر والساحل . وذكر البكرى عند كلامه على وادى ماسة (ص 161) : (ان ماسة التى اضيف اليها الوادى ، رباط مقصود عندهم ، له موسم عظيم ، ومجمع جليل ، وهو مأوى الصالحين) . وذكر ابن عذارى (ج 1 ص 102) : ان المولى ادريس انتهى الى بلاد السوس الاقصى ودخل ماسة . وما ذكره البكرى ذكره ابن خلدون فى (ج 6 ص 138 طبعة بيروت) . وذكر فى نفس ج (ص 374) : ان أبا بكر اللمتونى غزا بلاد السوس الاقصى وافتتح ماسة) . ورباط ماسة هو الذى اعتصم به محمد بن هود الماسى حينما ثار على عبد المومن الموحدى سنة 480 . وقد وضع المرحوم السيد احمد المكناسى (ماسة) فى خريطته الاركولوجية للمغرب ، وسط الخط الواصل بين اكادير وايفنى على شاطىء المحيط الاطلسى . المترجم

الاجزاء من التراب المجاور ، وربما كانت تلك الاجزاء مساحة كبيرة اذا صح القول أن سجلماسة كانت تصل الى حدود ماسة ، بل أن الواقع ان امتداد ماسة الى وادى درعة يتجه بها الى ناحية وادي زيز . فماذا يعنى الاسم اذن ؟ . فهل يعني علامة أو رمز أو انتصار على ماسة ؟ ان المعنى الشائع (1) Sigilla هو مجموعة من الرسوم او من الصور ، ولكن مفرده Sigillum الذي هو الصيغة الواردة في عبارة ليو يمكن كذلك ان يعني به ، اثر ، سمة ، علامة ، ولكن هل سبق ان استعملت الكلمة بهذه الطريقة في تسمية بعض الاماكن الرومانية ؟ في بريطانيا الرومانية كانت توجد مدينة اطلق عليها اسم Segelocum فهل جاءت هذه التسمية من كلمة Sigillum الذي يظهر عند الفحص ان الافضل هو ان تجزأ الكلمة الى جزأين قبل الحرف (L) لا بعده ، وان كلمة Locum التى تعني المكان مقصودة في الاسم ، وتكون الكلمة Sigillum دخلت الى العربية بالتغيير الذي اعطى الاسم سجلماسة . وفي استطاعة المرء ان نعتقد ان استنتاج ليو لا يقوم على أساس محقق ، ومع اننا لا نستطيع ان نطرده عن اصول اللغات الموروثة ، فان رائحة الاشتقاق الفولكلوري تفوح منه ، واعني بذلك نوع التفسير القائم فقط على الظواهر دون البحث العلمي القائم على أساس فقه اللغات وفهمها .و ناحية الضعف في هذا التفسير اللغوي تاتي من كون

---

(1) يعنى فى اللغة اللاتينية

الجزء الثاني من الاسم يبقى دائماً غامضاً ، كما ان الاستعمال الروماني هو ايضا امر مشكوك فيه ، والحقيقة ان كون لفـــظ « سجيل » دخل الى العربية لايساعد حتما التعليل الذي اتى بـه ليو ، ذلك لانه بالرغم من عدم اعتراف كثير من المعلقين فان الاسم يمكن ان يكون بكل سهولة من اصل عربي (1) .

فاذا كانت الكلمة عندها في اللغة العربية معنى ، دفتر تدوين ، او وثيقة من اي نوع كانت ، فهـــل يمكن أنها تشير الى بعض التقارير او البيانات عن التجارة عبر الصحراء ؟ ، وهذه ايضــا طريقة لاتتناسب مع التماس اسم لمكان ، واذا صح ان لفظـــة

---

(1) جاء فى القرءان لفظ (سجل) بدون ياء ، و (سجيل) بالياء ، وقد اختلف اهل اللغة واهل التفسير فى معنى اللفظتين وفى اصالتهما أو تعريبهما ، فقالوا فى الاول (سجل) ان من معانيه : الصك ، وكتاب العهد ، والكتاب ، والرجل بلغة الحبشة، وقد عده الاب رفائيل نخلة فى كتابه (غرائب اللغة العربية) من الالفاظ المأخوذة عن اللاتينيـــة وقال : ان اصله فيهــا لفظ Sigillum الذى يعنى وضع الخاتم على ما قيد من العقود ، وقد رجح الاستاذ احمد محمد شاكر فى تعليقه على كتاب (المغرب) للجواليقى تبعا لابن دريد ان اللفظة عربية · وقالوا فى الثانى (سجيل) ان من معانيه ، الصلب الشديد ، وحجارة كالمدر ، وحجارة من طين ، وقد ذكر البخارى فى تفسير سورة هود من صحيحه ان معناه (الشديد الكبير) ، وعلى هذا المعنى يكون عربيا اصيلا كما هو مذهب أبى عبيدة ، أما فى تفسير سورة الفيل من صحيحه ايضا فقد روى ان ابن عباس قال : (سجيل من سنك وكل) وعلى هذا يكون دخيلا فى اللغة العربية من الفارسية ، والى ذلك ذهب الجواليقى تبعا لابن قتيبة والازهرى ، مفسرا لفظتى سنك ، وكل الفارسيتين بمعنى حجارة وطين ، وبهذا المعنى ذكرها المسعودى عند كلامه على قصة الفيل فى مروج الذهب كما سينقله الكاتب عنه فيما بعد ·

المترجـــم

« سجيل » غامضة وقليلة الاستعمال ، وذات اصل دخيل في اللغة العربية ، فليس من المرجح ان تكون قد استعملت مرادفا لبعض الاسماء المتداولة بكثرة في اللغة العربية ، والذي يظهـــر أن في اللغة العربية اكثر من محمل يمكن ان يحمل عليه هذا الاسم ، فالمسعودي يحدثنا عن « حجارة من سجيل » انها « طين خلطت بحجارة خرجت من البحر » . فهل تكون الكلمة حينئذ قـــد استعملت لتشير الى معدن ذهبي ؟ ان شركة البحث عن معـــدن الذهب في سجلماسة قد يكون عندها نوع استحسان لهذا الراي ، غير ان كلمة «تبر» التي تعني في اللغة العربية « تراب الذهب » ربما كانت هي المفضلة لو اريد هـــذا المعنى ، وفي النهاية يبقى الجزء الاخير من الاسم غير واضح في هذه الحالة ، والذي يظهر أن هذا الاسم ليس بالاسم اللاتيني ، ولا بالعربي ، وربما كذلك ليس اسما بربريا .

5) الرواية عن الاسكندر

نسب بناء سجلماسة الى الاسكندر الاكبر ، وعن هذه الرواية يتحدث ليـــو الافريقي فيقـول : « ان عامة الناس ومعهم أحد جغرافيينا الافارقة الذي يدعى «البكري» يعتقدون ان هذه المدينة قد بناها الاسكندر الاكبر ، لاسعاف المرضى والمجروحين من جنوده ، وهذا الرأي ليس براجح عندي ، لاني لم اعثر قط فيما قرأت على أن الاسكندر الاكبر قد وصل الى هذه النواحي » .

قد نكون مدينين بالشكر لليو لانه كان مؤرخاً نزيها لم يمنعه عدم ثقته بتلك الرواية من ان يسجلها ، ذلك لانه بالرغم من عدم ثقته بهذه الرواية فإنها بلا شك تحتوي على شيء من الصحة ، وإن كان ذلك ليس بالامر الظاهر ، فقد لا يكون هناك أي فرق بين الروايتين اللتين سجلهما ليو اذا نظرنا الى مجرد الاسم ، وحينئذ يكون قد اشتبه عليه الاسم المذكور في هذه الرواية بأشهر سمى له ، وبيان ذلك ان الولايتين الافريقيتين ، نوميديا وموريطانية ، كانتا ايام الحكم الروماني من سنة 308 الى سنة 311 ميلادية تحت نفوذ دوميتيوس الاسكندر الذي كان في حرب مع ماكسينتيوس امبراطور روما اذ ذاك ، وقد كان الاسكندر الروماني هذا قليل الشبه بسميه الشهير ، ذلك لان هذا لاقى الهزيمة في اول معركة قام بها ، ولكن من الممكن ان يكون قد استغل الوقت قبل اعلان الحرب لتأسيس حصن وملجإ وراء جبال الاطلس المنيعة ، ويمكن ان يفهم هذا من عنصرين اثنين من الرواية ، ذكر الاسم « مع شيء من التغيير » وذكر الجنود ، وحينئذ تكون هذه الرواية الاخيرة تشير الى القائد الروماني المذكور في الرواية الاولى ، على ان من المحتمل أن يكون ذكر الجنود قد اريد به فقط اعطاء الصبغة الاصلية للفاتح الاعظم . واكبر الظن ان الرواية لها معنى يختلف تمام الاختلاف مع ما ذكرنا ، فالاسم « الاسكندر » يعني له في اللغة العربية « ذوالقرنين » ، الذي يمكن ان يترجم بالذي له قرنان . وهو لقب كان قد اطلق على « عمون رع » ، الإلاه

الذي يشبه رأسه رأس الكبش ، وعندما دخل الاسكندر المقدوني الى طيبة (1) نادى به الى كهنة عمون رع على انه ابن الالاه . هذه وكثير من أمثالها من العناصر المختلفة قد أضيفت فيما بعد الى قصة الاسكندر ، تلك القصة التي اختلفت باختلاف الشعوب التي عاشت فيما بينها ، وقد تراءى الاسكندر المقدوني تحت (ذو القرنين) في القرءان ، واذا كان (عمون رع) قد أصبح نسيا منسيا في أيام ليو الافريقي ، فربما ان الاسكندر المقدوني هو الذي كان ينطرق الى ذهنه عند سماع كلمة (ذو القرنين) ، على انه ليس من البعيد كذلك ان تكون هناك بقية من اثر ديانة عمون رع ، (فكوتيي) عنده ان ذلك ما يعني بذي القرنين في هذه الناحية ، قال (كوتيي) : (هناك حجة قوية على ان أثر المصريين القدماء قد تسرب الى الصحراء من الثيبين على طريق الواحات خلال (طيبة) التي كانت مركزا لعبادة الالاه عمون رع ، كما أن (كوربيوس) وكتابا ءاخرين قدماء قد علقوا اهمية كبرى على طقوس الكبش الدينية خلال قبائل الصحراء ، وقد نشر (مارتان) صورة فوتوغرافية لتمثال حجري مع رأس كبش كان قد وجد في (تمنطيت بتوات) ، كما أن نقوشا حجرية قد وجدت كذلك في

---

(1) طيبة ، ويقال لها ثيبة ، وطيوة قال عنها صاحب (العقد الثمين ص 10) : انها كانت من اكبر مدائن الديار المصرية واشهرها ، ولم يزل يشاهد فيها الى الان من المعابد والآثار ما يوجب تعجب الناظرين ، وقال عن (عمون رع) انه سمى بهذا الاسم فى عصر العائلة الحادية عشرة ، وانه معبود خصوصى لهذا القسم وعمومى لكافة مصر ، ومعنى (عمون رع) الشمس الخفية التى لا تدركها الابصار . المترجم

نواحي مختلفة من الاطلس الصحراوي بالغرب من فكيك ، وهي ثمثل رأس كبش فوقه قرص شمسي بازائه يوروس Uroeus الذي هـو بكل وضوح (عمون رع) ، زيـادة على أن أهالي وادي كير ينسبون أبيارهم العميقة الى ذي القرنين الذي يعني من له قرنان ، وهو الاسم الذي يعني به الاسكندر الاكبر في القرءان (1) وقـد سبـق ان الاسكندر قد اعتبر تسجيدا لعمون ، الالاه الذي يشبـه رأسه رأس الكبش . مما لا شك فيـه اذن ان هذه الالتقاءات مع المدنية المصرية التى توضح التشابه الغريب في فنون الري وصناعاته قد استعملت في كلتى الناحيتين ، فإذا كان لتاثير المصريين بوجه أو بتأخر دخل في تأسيس المدينة فإن ذلك ربما يعني ان بداياتها كانت اقدم من أيام الفاتح المقدوني ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة ان المصريين قد وصلوا الى هذه الناحية البعيدة غرب النيل . وأنه لامر يستحق الاهتمام ان ينسب ليو هذه الرواية الى عامة الشعب ، فهل يعني بذلك الحراطين ؟ ، فإن عامـة الشعب ربما تشمـــل ـ ان لم تخص ـ السكان الاصليين لان الطبقات الكبرى من علية القوم كانت في الغالب تتركب من مختلف موجات الفاتحين الذين دخلوا الى هذه النواحي في الفترة ما بين ايـام أبي القاسم وزيارات ليـو الافريقي .

---

(1) للتحقـق من الاسكندر المقدونى ليس هو المعنى بذى القرنين فى القرءان . راجع القسم الثالث من بحثنا « ثقافة القرءان والثقافة العالمية » . المنشور فى (دعوة الحق) . السنة التاسـعة العدد الثانى ص 8 .
المترجـم

كيف ترتبط الروايات المختلفة بعضها ببعض

ان كلا من البكري والوزان قد اختارا ما رجحاه من الروايات التي نقلاها ، وأعرب كل منهما عن اتجاهه فيما وثقه أو ضعفه من تلك الروايات ، ومع ذلك فقد كان لكل من الرجلين من حسن الادراك ما جعله يسجل من تلك الروايات حتى ما لم يحظ عنده بالقبول ، على حين أن كتابا آخرين قد رأوا وكان من واجبهم أن يغفلوا كل الروايات المركبة التي لا تحوي من الضبط والإتقان ما يتلاءم مع مؤلفاتهم التاريخية ، وأغلب الكتاب المعاصرين قد رأوا ان العمل التاريخي يقضي عليهم ان يختاروا ما صح عندهم من الروايات ثم يتجاهلوا الباقي ، وليست المشكلة عندي هي ان نصحح ماصح ، ونحكم بان ما عدا ذلك هو خطأ ، فلنفترض مثلا على سبيل المقارنة ان مسافرا قام بزيارة الى باريس ، وهو يجهل كل شيء عن فرنسا ، وقد تحدث اثناء ما هو هناك ، الى عدد من الفرنسيين من مختلف الجهات ، من ديجون ، ومن أفنيسيون ، ومن أكس لاشبيل ، ومن باريز كذلك ، فربما يكون قد التقط بعض روايات ناقصة ومضطربة عن (بركندي) ، وعن مملكة الكارولجيين ، وعن فرنسا المعاصرة ، فليس الواجب بالنسبة الى مستمعيه عندما يرجع الى بلده هو ان يحققوا أي تلك الروايات كانت صحيحة عن اصل فرنسا ، وإنما يكون الواجب اذا هم قد اهتموا ان يعالجوا المسألة هو ان يصنفوا العناصر في فترات مختلفة من الزمان ، وفي مجموعة منتظمة متميزة ، ففزان ـ مثلا ـ كانت نوعا ما اشهر من وادي زيز ،

ولكنها وقد كانت ـ مثل سجلماسة ـ تقع في النهاية الشمالية لطريق التجارة عبر الصحراء ، قد مر عليها كثير من الاحداث التاريخية ، وامتلكها في عدة فترات من التاريخ مجموعات من الاجناس المختلفة ، لذلك فان مجموع الروايات عن سجلماسة يجعلها على ما يظهر في وضع متشابه ، ومن ثم يكون السؤال ليس فقط في أي وقت بنيت سجلماسة ؟ ولكنه كذلك في كم من مرة أعيد بناؤها ؟ متى ؟ ومن قبل من ؟ . من المرجح غالبا أن مركزا مهماً كان يوجد في وادي زيز قبل سنة 757 ميلادية ، وقد يكون هذا المركز قد دعى سجلماسة أو لم يدع ، غير ان تجمع الروايات حول هذا الاسم يشير الى أنه كان كذلك قديما ، وليس لدينا من المصادر سوى المصادر المكتوبة باللغة العربية ، والمصدر الوحيد الذي كتب بالايطالية قد كتبه هو أيضا كاتب مسلم ، ومن ثم فلم يكن من الغريب أن ستارا قد أسدل بين الخلافة الاسلامية وبين ما سبقها من حكومات ان كانت موجودة ، فباستثناء شخصيات ذات اطلاع واسع ، وحرية فكر ، مثل اليعقوبي (1) فان جميع الكتاب المسلمين قد اتجهوا الى أن لا يهتموا بوجوه النشاط التي كانت (للكفار) قبل ظهور

---

(1) أبو العباس أحمد بن ابى يعقوب المشهور بان واضح اليعقوبى ، أحد مؤرخى وجغرافيى المسلمين فى القرن الثالث الهجرى ، له (كتاب البلدان) فى الجغرافية و (كتاب التاريخ) ، توفى سنة 284 هـ على ما يقول ياقوت فى معجم الادباء ، ويستنتج محمد صادق الذى ترجم له فى فاتحة طبع كتابه (البلدان) انه عاش حتى سنة 292 . المترجم

(المومنين) (1) .

وقد وجد عكس هذا الاتجاه نوعا ما في كثير من المؤلفات في الاراضى الفارسيـة واليونانيـة ، ولكن الروايات الاكثر قد ما لم يكن لها من حسن الحظ ما يضمن لها الاستمرار في هذه الواحات الصحراوية ، غير ان شعب سجلماسة استمـــر يذكرها باستمرار وجود سجلماسـة ، وقد سجل ليو هـذه الروايات في وقت كانت فيه قد هجرت من زمن بعيـد ، وكان السكان الاقدمون يقيمون في قصـور حولها ، ولم يحتفظ هؤلاء السكان ـ بطبيعـة الحال ـ بهذه الروايات المكتوبة لديهم ، ان ليو هو مصدرنا الوحيـد عن الروايتين اللتين سجلتا اعظم اقدم الآثار بالنسبة للمدينة . ويمكن للمرء ان يتساءل عما اذا كان ليو ـ وهـــو يكتب الى جمهور ايطـالي ، ويتحدث عن قائـد رومانى ـ كان فقـط يحاول أن يسترضي جمهوره ويتملقه ؟ وانه اخترع القصة لاجل هذا الغرض ، قد يكون ذلك حقيقة اذا نظرنا الى النص الذي بسببه اعتبرنا هذه الروايات ، ولكن ذلك لا يصدق اذا نظرنا الى مجموع كلامه في مؤلفه بأجمعه ، وربما كان غرض ليو هو تسجيل كل ما راج حول هذا الموضوع الشامل من جزئيات الاخبار مهما صغر شأنها ،

---

(1) قارن هذا القول مع قول فرانز روزنثال فى كتابه (علم التاريخ عند المسلمين) ، ص 130 ترجمة الدكتور صالح احمد ، قال : (والواقع انه لم يكن من الصعب الحصول على المعلومات التى تحتويها التواريخ الاسلامية عن الامم الاجنبية كافة) . وقال (تقبل التاريخ الاسلامى منذ بدايته تاريخ ما قبل الاسلام ، فقد الحق بسيرة الرسول تاريخ الجزيرة القديم واليمن ، والتاريخ اليهودى والمسيحى منذ الخليقة) . المترجـــم

وقد يكون الباعث له على تسجيل هذه الروايات هوادراكه لأهميتها لدى الجمهور الاوربي ، وانه لو كان يكتب لجمهور مغربي لحذفها ، وربما لا هذا ولا ذاك ، وانما أراد ليو أن يستحث شعور قرائه وكأنه أدرك أنهم عندهم تطلعا الى معرفة الاخبار الغربية . ويمكن ان يتساءل المرء ، لماذا لم يرد أي ذكر للقرطاجنيين مع أنهم كانوا رجال تجارة ناجحة في الاقليم ؟ . فاذا كانت التجارة قد ازدهرت في هذا الوادي في زمنهم فالغالب انهم قد اتجهوا نحوه ، لذلك فان دلائل تاريخهم التجاري تجعل عدم ورود أي ذكر لهم في هذه الروايات أمرا غريبا . واذا كان وصول التجار القرطاجنيين أقرب الى الاحتمال من وصول الرومانيين الى هذه الناحية ، فهل ان صعوبة التحقق من وجود ذكر القرطاجنيين فى اللغة العربية - وهي اللغة الوحيدة التى عن طريقها وصلنا الى ما وصلنا اليه من اخبار - هي التى حالت دون الوصول الى الحقيقة في هذا الشأن ؟ ربما كان الامر كذلك ، او ربما اننا لازلنا لم نحرز على السجل التام لجميع الروايات ، غير أنه ليس من المرجح أن نحظى بعد بالمزيد من الروايات بعد أن مضى من الزمان ما مضى ، ربما أن هناك سؤالا يمكن أن يطرح على احدى الروايات التي يشم منها رائحة الاشارة الى رجل قرطاجني ، ولكن لا أستطيع التكهن بما عسى أن يكون .

شيء من الاستنتاج من الروايات السجلماسية

ان رواية عيسى تمدنا باستنتاج ثبوت حكومة السود ، كما أن

رواية الاسكندر الاكبر تمدنا باستنتاج ثبوت التاثير المصري ، أما رواية مدرار فهي تنبئنا بالخبر عن وجود الحداد الحكيم الذي أدخل معرفة صناعة المعادن ، وكل هذه العناصر يمكن ان يناسب بعضها البعض الآخر بسهولة .

فمدرار يمكن أن يكون هو الذي أدخل معرفة الري وجلب كذلك عبادة عمون رع ، وكيفية استخدام صناعة المعادن ، وأوجد الحكومة التي انحدر منها عيسى، وان كنا في الحقيقة لا نتوفر على الحجة التي تجمع بين هذه الروايات ، واما رواية القائد الروماني فانها بالاضافة الى الاسم ، (عيسى) ، تشير الى حصول اتصال بالعالم الروماني ، أما عدم ورود أي ذكر للتجارة أو الذهب فانه يدل على اهتمام الروايات بالمحليات أكثر من دلالته على عدم وجود التجارة في ذلك الوقت .

تأسيس غانة :

لننظر الآن كيف ترتبط الروايات السابقة عن تأسيس سجلماسة مع الروايات عن تأسيس غانة . ان اغلب الروايات التي يستدل بها على أصل غانة هي تلك التي تثبت ان اول دولة أسستها كانت من الجنس الابيض . واذا كانت المدينتان قد أسستا من قبل مجموعة من أصل واحد كما أشير الى ذلك من قبل ، فان هذه الروايات عن تأسيس غانة تكون ولا شك غير متفقة مع الفروض العلمية السابقة التي أثبتت أن سجلماسة أسستها دولة من أصل اسود . وقبل أن

تعالج هذه المشكلة يجب ان ننظر في الروايات عن تاسيس غانة ونحاول تقويم أهميتها .

نسبة تأسيس غانة الى دولة من البيض

1) رواية محمود كعت :

يقول محمود كعت (1) : « واما سلطنة مل (2) ما استقامت الا بعد انقراض كيمع سلطان المغرب كله بلا استثناء مكان ما منه . وسلطان مل من عبيده وخدامه ووزرائه . وكيمع بكاف فياء وميم

(1) هو القاضى الفقيه محمود كعت ابن الحاج المتوكل على الله التنبكتى الدعكرى السودانى كان مستشارا للامير اسكيا الحاج محمد ، توفى سنة 1002 هجرية ، ودفن بتنبكتو بجوار قبر الفقيه احمد بن الحاج والد العلامة سيدى احمد بابا . والنص المنقول عنه هنا هو من كتابه المعنون بـ (تاريخ الفتاش) نشره هوداس مع ترجمته الى الفرنسية بباريس سنة 1913 . راجع معجم المطبوعات العربية ص 464 . وتاريخ السودان للسعدى ص 212 طبعة باريس .

(2) هكذا هى هنا بميم ولام مشددة ، بدون الف بعد الميم ؛ ولا ياء بعد اللام ، وقد نص القلقشندى (صبح الاعشى ج 5 ص 282 — 283) على انها بفتح الميم والف بعدها لام مشدودة مفخمة ، وياء تحت) . وهى كذلك مرسومة فى العبر ، ورسمها البكرى (المسالك والممالك ص 178) بميم ولام هكذا (ملل) . والقصة التى يشير اليها هوبير ديشان فى كتابه (الديانات فى افريقيا السودآء ص 123 الترجمة العربية) عن اعتناق أمير قبائل الماندانك (Mandinque) للاسلام هى عين القصة التى ذكر البكرى انها كانت سبب اسلام ملك (ملل) ، الشىء الذى يدل على أن البكرى قصد باسم (ملل) مالى ، وفى تسمية ابن خلدون (العبر ج 6 ص 413) لاول ملك اسلم من ملوك مالى باسم (برمندانة) دلالة واضحة على ذلك ، فالاسم (برمندانة) جاء ولا شك من اسم الشعب الماندانج ، والماندانجو الذى يقول الدكتور محمد عوض محمد (السلالات الافريقية ص 54) انه الشعب الذى يتمثل فى جمهورية مالى اكثر من سواها . المترجم

وعين مفتوحات معناها في لغة وعكري (1) ملك الذهب ، كيهو ، الذهب ، ومع ، الملك ، وهو سلطان عظيم ، وأخبرني بعض الموثقين عن فقيه قاضي ما سنـة ألفع أيد الماسيني ، أن كيمع من الملوك الاوائل ، وقـد مضى منهم عشـرون ملكا قبل ظهـــور رسـول الله (ص) ، واسم بلده قنب ، مدينة عظيمـــة ، وكان انقراض دولتهم في القرن الاول من الهجرة النبوية ، وحدثني بعض السلف ان آخرهم كنسعى بكاف مفتوحة فنون مكسورة وسين مهملة ، وعـين مفتوحـة قبل ياء ساكنـة ، وهو الملك في زمـان رسول الله (ص) . ولـــه بلد اسمه كرنكم ، وهو مسكن امه ، وهي الان بقيت عامرة . .) وبعد ان اتى بشيء من التفاصيل عن عظمة مملكة كيمع قال : (ثم افنى الله ملكهم وسلط ارذالهم على كبرائهم من قومهم واستأصلهم وقتلوا جميع اولاد ملوكهم ، حتى يبقـروا بطون نسائهم ويخرجوا الجنين ويقتلهم ، واختلف اي قبيلة كانوا منها ، قيل من وعكري وقيل من ونكر ، وهو ضعيف لا يصح وقيل من صنهاجة ، وهو اقرب عندي . لانهم يقولون في نسبهم اسكع صوب ، بهمزة مفتوحة فسين مهملة ساكنة ، فكاف مضمومة ، فعين مضمومة وهـو حم في اصطلاح سودان لقبا . والاصح انهم ليسوا من السوادين والله اعلم . وقد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا

(1) وعكرى ، كما يقول كعت (تاريخ الفتاش ص 24 ــ 25) ، اسم قبيلة منسوبة الى جدها وعكرى ابن براس ، وهى بواو مفتوحة وعين ساكنة وكاف وراء مضمومتين فياء ساكنة . المترجـم

يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم ان ياتي بصحة شيء من امورهم يقطع بها ، ولم يتقدم لهم تاريخ فيعتمد عليه » (1) .

2) رواية عبد الرحمن السعدي (2)

أما عبـــد الرحمن السعدي فروايته في الموضوع اخصر واقل وضوحا من رواية كعت ، وهو متفق معه في النقطة الاساسية التي نحن بصددها ، وليس من البعيد ان يكون قد تأثر بــــه حين يقول « . . . وكميع هـو الذي بدا السلطة في تلك الجهة ، ودار امارته غانة ، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن ، قيل أن سلطتهم كانت قبل البعثة ، فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكا ، وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكا ، وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكا ، وهم بيضان في الاصل ، ولكن ما نعلم من ينتمي اليه في الاصل ، وخدامهم عكريون ، فلما انقرضت سلطتهم خلفها في السلطنة أهل مل وهم سودان فى الاصل » .

لقد أتخذت هذه المستندات مرارا لتشير الى أصل بربري لدولة غانة ، كما اشـــار الى ذلك محمود كعت ، ولكن التفسير الاكثر

---

(1) آثرت النقل عن الاصل العربى مباشرة ، لما احتوى عليه من ضبط الاسماء بالنص على حركاتها : خصوصا وقد تعرضت هذه الاسماء لكثير من الخروج عن اصلها بسبب كتابتها بالحروف اللاتينية ، واذا لاحظ القارىء بعض الاختلال فى القواعد والتعبير فانما ذلك الاصل .

(2) هو عبد الرحمن السعدى بن عمران بن عامـــر التنبكتى توفى سنة 1066 هجرية ، والنص المنقول عنه هنا هو من كتابه (تاريخ السودان)، نشره هوداس بباريس سنة 1901 ، راجع معجم المطبوعات   المترجـــم

شيوعا هو أن الدولةالاولى قد أسسها يهود قورينيون (1) أو يهود سوريون ، غير أن هذا القول ليس أكثر من تخمين وهمي ولو انه صدر من رجل عارف ، وقد نوقش بما له وما عليه ، فليس لنا من داع للاهتمام به هنا ، يعترف محمود كعت بأن الروايات كانت بعيدة عن الزمان الذي كتب فيه كتابه ، كما انهـــا كانت غير مضبوطة ، ومن مواطن مختلفة ، الى الحد الذي لم يكن معه أي تحقيق للتفاصيل ، أمـــا السعدي فقد خضع لطريقة التخريف في معالجته لعدد الملوك الذين حكموا البـــلاد ليجعله موافقا لحادث الهجرة ، ذلك الحادث الذي لم يكن بينه وبين حكم هؤلاء الملوك أي ارتباط . يعتبر محمود كعت الهجرة كأساس للتوريخ ، ويجعل نهاية دولة كيمع معاصرا للنبي (ص) ، وبناء على قوله هذا لم يكن عدد ملوك هذه الدولة أربعة وأربعين ، ولكن اثنين وعشرين فقط ، فإذا اعتبرنا هذا وقلنا ان عدد ملوك اول دولة حكمت غانة هو اثنان وعشرون ، فماذا اذن كان التاريخ التقريبي لسقوط هذه الدولة ؟ عند محمود كعت ان نهاية حكم كيمع ينتهي بظهور دولة مـالي ، وهي تلك الدولة المتغلبة التي يكاد يتفق على أن بدايتها كانت في القرن الثالث عشر ، وهذا يتناقض تماما مع ما اثبته من ان آخر ملوك كيمع كان معاصرا للنبي (ص) . والذى يظهر ان كعت لم

---

(1) نسبة الى قورينية Cyrene احدى المدائن الخمس القديمة التى اسسها المستعمرون اليونان فى الاراضى الطرابلسية فى القرن السابع قبل الميلاد واليها ينسب الفيلسوف اليونانى ارسطبس صاحب فلسفة اللذة والالم .
المترجـــم

يكن شخصيا ملما بما كتبه ابن خلدون او غير بن خلدون من الكتاب المغاربه الذين كتبوا عن غانة (1)

وقد يكون المؤلف السوداني اختلط عليه ظهور الاسلام في السودان بظهور الاسلام في الجزيرة العربية ، فدفع بزمن سقوط الدولة الى الوراء ، ولكن اذا كان اثنان وعشرون ملكا فقط هم الذين حكموا الدولة قبل سنة 1240 ميلادية فان ذلك ربما يقتضي تاسيسا متاخرا لغانة اكثر مما هو المفروض لدى العموم ، ومتاخرا كذلك عن تاريخ تاسيس سجلماسة شريكتها التجارية . والشيء الذى يمكن ان يكون حلا بالنسبة الى توريخ محمود كعت ، هو ما جاء في تعليق المترجمين (2) اللذين حدثانا ان روايات محلية كانت لاتزال تجري حتى سنة 1913 تختلف عن رواية كعت ، وتنص على أن الكيمعيين كانوا من

---

(1) الذى عند ابن خلدون (العبر ج 6 ص 412 — 413) ان مملكة غانة القديمة التى كانت اعظم مملكة سودانية مجاورة للبحر المحيط ، ضعف ملكها ، وتلاشى امرها ، باستفحال امر الملثمين الذين (عبروا السودان واستباحوا حماهم وبلادهم واقتضوا منهم الاتاوات والجزى وحملوا الكثير منهم على الاسلام فدانوا به) . وقد حدد ابن خلدون عند كلامه على دولة المرابطين فتوحات ابى بكر اللمتونى للاراضى السودانية ب 453 هـ (1061 م) ، ولكنه فى خبره عن ملوك السودان ، حيث كانت اغلب اخباره عنها مستقاة من روايات شفوية ، لم يحدد اى تاريخ لبداية مملكة اهل صوصو الذين تغلبوا على اهل غانة (واستعبدوهم واصاروهم فى جملتهم) كما يقول كما انه لم يحدد كذلك اى تاريخ لبداية مملكة مالى التى اسقطت بدورها مملكة صوصو واستولت على جميع ما كان لها ولغانة من الممتلكات . وقد ذكر هوبير ديشان ان بداية ظهور امبراطورية مالى كانت فى القرن الثالث عشر ، وحدد رولاند اوليفر وجون فيج (موجز تاريخ افريقيا ص 98) هذه البداية بسنة 1230 م .

(2) هوداس ودولافوس — المترجم

الجنس الاسود ، وانهم هم الذين اسقطوا دولة البيض ، فهما يؤكدان : « انه بناء على رويات لا تزال تجري في السودان ، فإن دولة من الجنس الابيض كانت حقيقة موجودة قبل الهجرة ، وان عاصمة هذه الدولة كانت هي غانة في ناحية وآكتا ، وان هذه الدولة قد سقطت في القرن الثامن الميلادي على يد قبائل السونينكة السود الذين كانوا رعاياهم وعبيدهم ، والذين ربما قد دخلوا في حرب بعد ان احرزوا على السلطة الكاملة مع المرابطين في القرن الحادى عشر ليروا اماراتهم وقد اصبحت اثناء القرن الثالث عشر منضمة الى بعضها بعضا ، اولا ، في مملكة هي مملكة صوصو السونينكية على الجنوب الشرقي من كاتياك ، ثم في مملكة الماندنك التي تم تكوينها في هذه الفترة حوالي سنة 1240 ، وهكذا تختلف هذه الروايات الشفوية المحلية مع ما اثبته مؤلفنا محمود كعت ، فهو يثبت ان الكيمعيين كانوا امراء من الجنس الابيض ، وكانوا يقيمون في واكدو ، على حين أن هذه الروايات تثبت على العكس من ذلك ان امراء الجنس الابيض بالضبط هم الذين سقطوا على يد كيمع الذى كان حينئذ ملكا لو اكدو والذى نقل عاصمته الى غانة التي كانت مقر حكم دولة البيض ثم استبدلها هو بعاصمة ملكه » . ولكن من المؤسف ان مترجمي تاريخ الفتاش لم يسجلا هذه الرويات الشفوية بنصها الحقيقي ، ولم يثبتا مصدرها ولا قاما بتحليلها بمثل ذلك الاهتمام الذى اعطياه لمؤلف كعت ، لذلك فنحن لانميز بين ما هو من انتاجهما الخاص ، وما هو من اصل الروايات في تلك المعلومات

التي يشملها التعليق ، ومن ثم فهو في الحقيقة لا يساوي الا تعليقا ، ومع ذلك فان علينا في اللحظة الحاضرة ان نقنع بما امدانا به .

إن اعتبار دولة الكيمعيين هي الدولة الثانية لا الاولى لغانة يجسم لنا مشكلة تفاصيل سقوط الدولة الاولى ، فمما لا شك فيه ان مالي لم تقم غانة مقام عاصمتها الاولى ، وانما جعلتها فقط مكان شرف لملوكها في المملكة ، وعلى هذا يترجح ان استئصال الخط القديم كان من عمل الكيمعيين لا من عمل ملوك مالي ، على ان المشكلة لا تحدث بالنسبة الى رواية السعدي ، ذلك لان زمان حكم الاثنين والعشرين ملكا بعد الهجرة يمكن ان يتناسب مع ظهور مالي ، ولكننا قد سجلنا من قبل ذلك الاعتراض الذي يحول دون اعتبار ما قاله السعدي شيئا صحيحا ما دام لم يقم الحجةعلى ثبوته ، ومهما يكن من الامر فان الاسم او اللقب (كيمع) مشتق على ما يظهر من لغة سودانية ، على ان هذا الاشتقاق قد يكون هو نفس الاشتقاق فيما اذا كان اطلاق الاسم أو اللقب قد وقع اول ما وقع من قبل دولة بيضاء أستعملت لغة رعاياها . ان اهمية اشتقاق الاسماء أو الالقاب مضافة الى الدولة الحاكمة التي استعملتها ، هي ان اللغة اذا تأكدت نسبتها الى أي سلالة من السلالات البشرية تنير لنا الطريق لمعرفة اصل تلك السلالة التي شكلت الدولة ، غير ان جميع ما أمكن ان يقال في ما نحن بصدده الان هو ان اللغة بالرغم من التأكد من نسبتها فان معنى اللقب لايزال موضع شك ، لذلك فليس في استطاعتنا في الوقت الحاضر ان نجني كبير فائدة من هذه

المعلومات التي وصلت الينا .

لقد كتب محمود كعت كتابه أثناء القرن السادس عشر ، وكتب السعدي كتابه في القرن الذي يليه ، فإذا كانت دولة البيض قد سقطت في القرن الثامن ، فان أقدم هذين المؤلفين حينئذ لم يكتب الا بعد مرور ثمانمائة سنة على الحادث ، ومع انه كانت توجد ولا شك بعض أقدم المستندات التي ساعدت على الاحتفاظ بذكرى الدولة القديمة ، فان كعت قد اعتمد في مؤلفه الخاص على كثير من المعلومات الشفوية المستمدة من أفواه العلماء الرواة بمثل ما اعتمد على مستندات مكتوبة ، وانه لمن المهم ان نلاحظ أن الكتابة لم توجد في السودان الا بعد القرن الثامن بزمان ، وهكذا لا يمكن أن نتصور وجود بعض المؤلفات المعاصرة لذلك الزمان . ان القرن الحادى عشر ، وهو القرن الذي نشطت فيه حركة اعتناق السودانيين للديانة الاسلامية ، كان ولا شك هو القرن الذي ابتدأ فيه ظهور الكتابة اكثر من استخدامها كأداة للتسجيل في السودان الغربي، وحتى لو أمكن تصور وجود بعض الكتابات المسجلة قبل القرن الحادي عشر على سبيل الصدفة ، فان ذلك لا يمكن أن يعدو قرنا من الزمان على الاكثر ، وهكذا يكون انه لم يصبح في الامكان ان يكتب تاريخ دولة البيض الا بعد مضي قرنين او ثلاثة قرون على انقراضها . واذا كانت الرواية قد سجلت في فترة سبقت كثيرا زمن دخول الكتابة ، فان المخطوطة او المخطوطات ربما تكون قد تعرضت لاثر المحو والتلاشي والضياع وتحريف النساخ ، وهكذا

تكون ستة او وسبعة قرون قد مضت قبل ان تكون النسخ الاصلية الموجودة الان قد كتبت ، على ان هذه هي ايضا بدورها قد تعرضت للبتر والتمزق قبل ان تصبح الان بايدينا تامة ومترجمة (يعني ترجمة هوداس ودولافوس الفرنسية) . ان تعرض المخطوطات للمحو والتلاشي ظاهرة جد معروفة لدى المؤرخين ، وقد يقال ، انها لا تحول الابيض الى اسود ، ومع ذلك ، فذلك ما اعتقد أنها قد فعلت ! ، وان الحجة لا تأتي من النصوص ، ولكن من الوضع الذي قد ارتبطت فيه الاحداث بالنصوص الموجودة ، ذلك ان انشاء قاعدة شمالية لتجارة الصحراء في الناحية الغربية ، ربما يكون في حاجة ، ان عاجلا او آجلا ، الى انشاء قاعدة جنوبية ، فاذا كانت القاعدة الشمالية مملكة سوداء كما قد افترضنا ، وكان سكان الصحراء كذلك من أصل أسود ، فقد يكون من المسلم به ان القاعدة الجنوبية قد أسست من قبل السود ، ولكن رواية دولة البيض تقف حجر عثرة في سبيل هذا الحل ، غير انها ربما تراءت كصعوبة اكثر مما هي في واقع الامر . ان السود الصحراويين نوعا ما أقل سوادا من السود الذين هم أقرب الى الجنوب ، وربما يكونون قد وصفوا من قبل اعقابهم سكان الصحراء المنبسطة وصفا قد فهم منه فيما بعد انهم بيض ، وعلى سبيل المقارنة يمكننا ان ناتي بالمثال التالي : فلو ان عبارة لاحد سكان الاقاليم الاسكندنافية ورد فيها وصفا لشخص من سكان البحر الابيض المتوسط بانه (أسمر) ، وكان المؤلف الذي ورد فيه هذا الوصف

قد خضع لنفس الظروف التي خضع لها المؤلف الذي ورد فيه وصف سكان الصحراء لاسلافهم الاولين بانهم (بيض) لكانت النتيجة النهائية ان الرواية التاريخية الاسكندنافية ربما قد فهمت خطئا انها تشير الى جماعة من السود ، وبعبارة اخرى يمكننا ان نقول ان الدولة المؤسسة لغانة كانت من لون عيسى ، ولكن حيث ان عيسى كان منظورا اليه من قبل الافارقة الشماليين على أنه اسود ، فإن مؤسسي مدينة غانة ربما نظر اليهم من قبل السودانيين على انهم بيض ، فاالفرق اذن كائن في اعين الناظرين اكثر منه في الاشخاص المنظور اليهم ، فلو أن جماعة من سكان الشمال وسكان الجنوب كانوا ينظرون عن قرب الى اشخاص تتفاوت ألوان بشراتهم الدكناء ، واستعمل الناظرون الوان بشراتهم كمقاييس للمقارنة فربما وصف الشخص الواحد من أولئك الاشخاص المنظور اليهم بعبارات تختلف باختلاف الوان بشرات الناظرين .

وللتركيز على معقولية شيء من نوع ما جرى ، نستطيع أن نؤكد أن سجلماسة وغانة ، وهما معا في الصحراء ، وقد ارتبطت احداهما بالاخرى بخط من الابيار والواحات معروف لدى سكان الصحراء دون غيرهم ، نستطيع أن نؤكد نأ مواقعهما ، ووظائفهما التجارية ، وعلاقتهما التاريخية الطويلة ، كل ذلك يقدم لنا الاحتمال الراجح على انهما قد أسستا من قبل سكان الصحراء انفسهم ، واذا كانت سجلماسة هي من القدم بالقدر الذي اشارت اليه رواياتها التاريخية ، وكان وجودها يفرض حدوث شريكتها

التجارية ، أن عاجلا او آجلا ، فان غانة حينئذ لا يمكن أن يكون تأسيسها احدث بكثير من السنين بالنسبة الى تأسيس سجلماسة .

وهكذا نرى ان البرابر بعيدون عن ان ينالوا شرف التأسيس الذي رشحوا انفسهم له ، ذلك لانهم لم يحلوا بهذه الاراضي الا بعد ان تأسس الطريق التجاري الصحراوي بين المدينتين بزمان (1).

منهج افتراضي للتاريخ القديم لسجلماسة وغانة :

وبعد ان شارك مدرار في ثورة وقعت في بعض الاماكن غير معروفة لدينا ، ـ (وربما كان ذلك مملكة الكرامانتيين (2) او في بعض الواحات الصحراوية الاخرى الى جهة الشرق) ـ فر الى ناحية وادي زيز ، وأصبح له تايير على سكان هذه الناحية بسبب معرفته لاستخراج بعض المعادن الخام وتحويلها الى معادن صلبة ، ثم صنع الادوات النافعة من هذه المعادن ، وبسبب ادخاله لبعض وسائل الري واستصلاح الاراضي الزراعية ، ونشره لعبادة الاله ذى الرأس الكبشي بين الاهالي ، وهكذا تكون قد نشأت مدينة ،

---

(1) سيشير الكاتب فى سؤاله الاخير فى نهاية هذا البحث الى ان كل مقرارته فى هذا الموضوع قائمة على الفرض Hypothesis وقد سبق له ان نصحنا فى مناسبة سابقة انه (ينبغى ان ينظر الى افتراضاته بقدر كبير من الاحتراس) .

(2) الكرامانتيون « Garamantes » قبائل قديمة كانت تسكن اقليم فزان فى عهود الالف سنة قبل ميلاد المسيح ، وقد ذكر المؤرخ اليونانى هيرودتس اخبارهم . المترجم

واصبحت مزدهرة بانتشار التجارة عبر الصحراء . وقد نستنتج من هذا ايضا ان مدرارا جلب معه شيئا من تجارب سكان اقاصي الناحية الشرقية من الصحراء ، ثم ان سجلماسيين ، او سكان الصحراء الذين اشتركوا معهم في تنظيم نقل البضائع عبر الصحراء نزلوا في الجبهة الجنوبيــــة للعمل على تنظيم صفقات من الـذهب وبعض البضائع الاخرى من هناك والرحلة بها الى جهة الشمال ، وبذلك استطاعوا ان يفرضوا زعامتهم على سكان سهول الصحراء، وبصفة تدريجية أصبح حكمهم نافذ المفعول على أراضي شاسعة من تلك النواحي ، بحيث صار لهم من نفوذ السلطان ، وكثرة المال ما استطاعوا أن يكونوا به مملكة تحت اسم (غانة) ، ومهما يكن اصل العلاقة التي كانت تربط بين سجلماسة وغانة فإن بعد المسافة بينهما اعطى لكل منهما استقلالها الذاتي الحقيقي ، ولمدة طويلة بقيت هذه التجارة محمية بالصحراء نفسها حيث كانت هذه الصحراء الواسعـــة مستعصيـة على ان يخترقهـا سكان الشمـال او سكان الجنوب ، وفي النهاية اصبحت غانة مغمورة بزنوج السافانة ، كما اصبحت سجلماسة مملكـة بربرية . والمصادر التاريخيـة الاولى ، لكل من المدينتين تثبت انهما كانتا معـا محكومتين من قبـل الفاتحين ، وهناك رواية واحدة مضطربة منحرفة هي التي احتفظت ببعض الاشارات الى لحمة النسب القديمة التي كانت تربط كلا من المدينتين بالاخرى ، على ان سجلماسة ربما كانت قبل كل هـــذه الاحداث قد مضت عليها قرون وهي تتجر مع القرطاجنيين ، ثم

مع تجار نواحي افريقيا الشمالية الرومانية . والمسيحية الدوناتوسية (1) ربمـــا تكـون قـد دخلت الى هـذه النواحي في هـذه الفترة ، وحلت محل عبادة الاله الـذي يشبه رأسـه رأس الكبش ، وأعيد بناء المدينـة على نمط يقترب من نمط روماني قيلا او كثيرا ، وربما استمرت تحت احتلال احدى فـرق الجيش الروماني لفترة من الزمان ، وبانقطـاع الامتدادات عن جيوشهم في هذه الناحيـة بسبب تقلص مملكتهم اصبح الرومانيـون الذين كانوا قـد تغلغلوا داخل هـذه الاراضي مندمجين في سكانها ، ورجعت دولة مـدرار الى الانكماش على نفسها . وبعد هـذا بزمن توترت العلاقة الى حين مع دولة غانـة بسبب ثورة رعاياها ، ولكن الدولة الجديـدة أعادت العلاقـة التجاريـة والدبلوماسية الى سابـــق عهدها ، وفي السنـوات التي تلت هـــذا العهد مباشرة وصل جيش عربي الى المغرب واحتله بأجمعه ، ولم تستطع مملكة سجلماسة الصغيرة أن تقف في وجهه ، وخضع سلطانها الى موسى بن نصير وجنوده ، غير ان ذلك لـم يـدم طويلا حيث استطاعت المملكـة ان تسترجع استقـــلالها في بضـع سنوات ، وحينئذ اعـــاد عيسى الـذي يتحدث عنه المؤرخون من مؤرخي العرب بناء المدينـة في شكـل اقوى مما كانت عليـه من قبل ، ووصل المنتجعون من مكناسـة الى هذه النواحي حيث اقتبلوا كحلفاء ضد العرب ، وبالرغم من

(1) المسيحيون الدوناتيستيون « Donatists » هم اتباع دوناتوس اسقف طرجاجنة فى اوائل القرن الرابع ، وهو الذى دعا الى الخروج على رجال الكنيسة الكاثوليكية حيث اتهمهم بالضعف امام الاضطهاد الوثنى الذى قام به اباطرة الرومان ضد المسيحيين فى ذلك الوقت . المترجم

ان هؤلاء المكناسيين قد تعهدوا بالولاء لسلطة مملكة الزنوج ، فانهم اقدموا على الاستلاء على الحكم بمساعدة بعض البرابرة ، والذين اتفقوا معهم في المذهب الدينى ، وقد زوج المغتصب للسلطة ولده بفتاة من عائلة مدرار ، وسمي ولد ءاخر باسم مدرار المؤسس للعائلة ، ثم أن مدرارا الجديد هذا تزوج بفتاة من القبيلة ، كما تزوج ببنت لملك مجاور ، وكلتا الزوجتين ولدت أولادا ، ووقع خصام بين أبناء الضرائر للاستيلاء على الحكم ، ولكن السجلماسيين عضدوا ابن بنت قبيلتهم ، ونجحوا في نتصيبه حاكما على رأس الدولة ، وكان هذا في الوقت الذي اصبح فيه سكان السود من بقايا مملكة الزنوج القديمة مبعدين عن الشؤون السياسية لسجلماسة ، وبعد أن مضى جيل من الزمان على هذه الاحداث ، هزم المكناسيون من قبل جماعة أخرى من برابرة زنانة ، حيت تعاقبت على المدينة مرة اخرى سلسلة طويلة من حكام البرابرة المغيرين .

وهكذا أصبح السكان الاصليون يرزحون تحت ثقل هذه الغارات ، وظلوا حينا من الزمان يعيشون كطبقة ثانوية اشبه بالعبيد منها بالاحرار . وقد كان لاحدى الغارات البربرية التي اكتسحت سجلماسة اثرها العميق في غانة ، وتلك هي حركة المرابطين التي هاجمت غانة أولا ، ثم رجعت جانبا واحتلت سجلماسة حيت ظلت تحت حكمها اربعة عشر سنة قبل ان تستولي على غانة ، وكانت سجلماسة هي عاصمة المرابطين اولا ولكنهم نقلوا العاصمة في الاخير الى مدينة مراكش ، وحولت التجارة من

الجنوب الى العاصمة الجديدة ، وبهذا بدأت سجلماسة تتأخر تدريجيا ، وبما ان المرابطين لم يكونوا قادرين على مراقبة جمع الذهب في الجنوب ، فان هذه التجارة قـــد رجعت الى الايدي التي حذقتها احسن ، وبذلك استعادت غانـة نشاطها من جديد ، ولكنها حالما اصبحت محكومة من قبل احدى حكومات عبيدها ومواليها ، وهي ملي ، وبهذه الحكومة التي أسست نظم الحكم على أساس التعاليم الاسلامية ظهرت صورة جديدة للتاريخ السوداني .

السؤال الأخير

ربما نكون قد استطعنا ان ننمي فهمنا للمسالة بهذه الطريقة ، غير ان ما استطعنا ان نظهره من بعض الحقائق المضبوطة ليس الا شيئا قليلا بالنسبة الى المجهود المبذول ، وربما كان ذلك ناتجا عن تعقد المشكلة ، وان كل المقررات التى نحصـل عليها من مثل هـذا النوع من مادة البحث ينبغي ان تعتبر من قبيل الفرضيات ، غير ان الفرضيات هـي دائما اهـم وسائلنا وحـوافزنا المنشطة في طريق البحث العلمي ، فـما هـي الوسيلة التي يمكن ان تختبر بهـا هـذه الفرضيات ؟ ان الاجوبـة على ما يظهـر ليست في باطن الكتب ، قد يكون في استطاعتنا ان نقف على مخطوطات لا تزال مجهولة لدينا ، او نجمع معلومات جديدة من مصادر قديمة ، ولكن وسائل التحقيق التي لا تقبل الشك تعوزنا مع ذلك ، ذلك ان هـذه لا توجد الا في الاثريات ، واذا كانت الاثريات لا تستطيـع ان تمدنا بالاجوبة

على ما تضعه علينا اقل تفاصيل الروايات التاريخية ، فانها ولا شك تستطيع أن تثبت او تنفي التأثير الروماني او المصري ، ان موقع سجلماسة معروف ، ولكن يد التنقيب لم تصله ، وان أحد أسباب عدم الاعتناء بالتنقيب عن الآثار في خرائب سجلماسة وهو ولا شك يكمن في الاعتقاد بأنها ليست أقدم من التاريخ الاسلامي ، على ان احتمال وجودها في زمن اقدم من ذلك يزيد من اهميتها كموقع أثري . وعلى العكس من ذلك فان موقع غانة غير معروف ولكن المنقبين عن الآثار يعتقدون ان قومبي صلاح هو موقع المملكة القديمة ، ومع ذلك فانهم لازالوا لم يحرزوا على أي شيء لما قبل تاريخ الاسلام ، كما ان هوية الموقع لاتزال كذلك غير معينة ، وان التنقيب المستمر سيزودنا بأحسن القواعد التي تمكننا من ان نقرر ما اذا كانت (قومبي) تشير في الواقع الى شيء مما تحتوي عليه النصوص الغربية ، ولو قدر ان اكتشفت بعض منتجات الانسان في اقدم دولة لغانة ، فان اعمال التنقيب في سجلماسة ربما تكون حينئذ ذات فائدة ، ليس فقط لفائدة سجلماسة وحدها ، ولكن كذلك لتزيدنا من فهمنا للعلاقة التجارية التي كانت لها مع زميلتها التجارية في الجنوب ، بل أكثر أهمية من ذلك تنير السبيل لفهم العلاقة التي كذلك لسجلماسة مع بعض شعوب البحر الابيض المتوسط ، وهي شعوب اسست قواعد كتابة تاريخها على أساس علمي ومضبوط ، وان ذلك ربما يؤكد كتابة تاريخ السودان ذات الصلة ببعض التوريخات التي لا تقبل الشك .

تـــم الطبـــع بتاريخ 16 ذى الحجة 1395
بمطبعة النجـــاح الجديدة ـــ الـــدار البيضاء

فهرس الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطــأ	الصواب
8	4	هويرينكــا	هويزينكــا
	3	فالرواية	فالروايات
	10	الروايــة	الروايات
9	11	فكوتيى مثلا قد كتب يقول: ان سجلماسة قد أسست فى تافيلالــت 58 ــ 757 كانت اعظم طريق ...	فكوتيى مثلا كتب يقول : ان سجلماسة قد أسست فى سنة 757 وموريــس لومبارد يؤكد قائــلا ان سجلماسة التى تأسست فى تافيلالت سنة 58 ــ 757 كانت اعظم طريق ...
19	6	سلاسى	سلالــى
	6	يرى السؤال	يرى أن السؤال
20	5	فاما البرابرة	فأما ان البرابرة
25	12	ان يسيطرون	ان يسيطروا
27	10	ولــداه	ولــده
33	11	الخاريجى	الخارجى
37	8	طبيعية	طيعة
38	19	تبت	ثبــت
39	2	اطلال	الاطلال
40	15	نعتقد	يعتقد
43	20-19	يعنى له فى اللغة	يعنى فى اللغة
44	2	نادى به الى كهنة	نادى به كهنة
44	8	ينطرق	يتطرق
49	4	الغربية	الغريبة
53	7	بــدا	بــدأ
63	4	قيلا	قليــلا
	17	المؤرخون	المتاخرون



صدر عن



- التراجيديا كنموذج — الدكتور حسن المنيعي
- من ادب الدعوة الاسلامية — الدكتور عباس الجراري
- في الشعر السياسي — الدكتور عباس الجراري
- الامير الشاعر ابو الربيع سليمان الموحدي - الدكتور الجراري
- مناهج البحث في اللغة — الدكتور احسان تمام
- دفنا الماضي — الاستاذ عبد الكريم غلاب
- الحضارة المغربية عبر التاريخ — الاستاذ الحسن السائح
- الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية
  الدكتور ابراهيم السولامي
- روضة التعريف بالحب الشريف مجلدان
  الاستاذ محمد الكتاني
- العصبية والدولة — الدكتور عابد الجابري
- المغرب في طريق الاستقلال - الاستاذ محمد العربي الخطابي

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء